

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

حِينَ يَمْتَلِئُ الْعَالَمُ مِنْ حَوْلِ الْإِنْسَانِ وَيَفْرُغُ قَلْبُهُ



رَحْلَةً مِنْ فِتْنَةِ الْعَدَدِ إِلَى سُؤَالِ النَّعِيمِ



تَأْلِيْف: رَدَّاد السَّلَامِيُّ

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

حِينَ يَمْتَلِئُ الْعَالَمُ مِنْ حَوْلِ الْإِنْسَانِ وَيَفْرُغُ قَلْبُهُ

رِحْلَةً مِنْ فِتْنَةِ الْعَدَدِ إِلَى سُؤْلِ النِّعَمِ

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة المنهجية

السُّورَةُ الَّتِي تَنْتَزِعُ الْإِنْسَانَ مِنْ زِحَامِ الْأَشْيَاءِ لِتُوقِفَهُ أَمَامَ حَقِيقَتِهِ

ليست سورة التكاثر حديثاً عن المال وحده، ولا إدانةً للغنى في ذاته، ولا دعوةً إلى هجر العمران وترك أسباب القوة، وإنما هي كشفٌ قرآنيٌّ نافذٌ عن ذلك التحول الخفي الذي يقع في أعماق الإنسان حين تخرج الأشياء من يده لتدخل قلبه، وحين تنتقل النعمة من كونها أداةً يستعين بها على غايته إلى غايةٍ تستعبده، وحين لا يعود يسأل: ما قيمة ما أملك؟ وفيم أنفقه؟ وأيُّ أثرٍ صالحٍ أبقى به في الأرض؟ بل يصبح سؤاله الوحيد: كم أملك؟ وكم يملك غيري؟ وكيف أكون أكثر منه؟ عندئذٍ لا يكون الخلل في كثرة الأشياء، بل في أن تتحول الكثرة إلى ميزانٍ للقيمة، والعدد إلى تعريفٍ للإنسان، والمقارنة إلى نارٍ لا تنطفئ، والعمر إلى سباقٍ محمومٍ نحو غايةٍ كلما اقترب منها صاحبها ابتعدت عنه؛ لأنه لا يطلب حداً معلوماً من الكفاية، وإنما يطلب شعور التفوق، وشعور التفوق لا يشبع ما دام في الأرض من يملك أكثر، أو يظهر أكثر، أو يذكر أكثر.

تأتي هذه السورة القصيرة في عدد آياتها، الهائلة في مجال رؤيتها، لتضع اليد على واحدٍ من أعمق أمراض الحضارة الإنسانية: أن يُستنزف الإنسان في جمع الوسائل حتى ينسى الغاية، وأن يُرهق نفسه في تحسين شروط الحياة حتى تفوته الحياة نفسها، وأن يبني حول جسده عالماً مكتظاً بالأسباب، بينما يترك روحه عاريةً من المعنى. إن الإنسان لا

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

يهلك دائماً لأنه لا يملك، بل قد يهلك لأنه لم يعرف كيف يملك؛ ولا يضل دائماً في الصحراء الخالية، بل قد يضل في المدن المزدهمة، وبين الأرقام الصاعدة، والحسابات المتضخمة، والممتلكات المتكاثرة، والتصفيق الذي يتسع من حوله بينما تضيق في داخله مساحة السكينة والصدق واليقين. وهنا تنفذ السورة إلى قلب الأزمة: ﴿لَهَا كُتُبُ التَّكْوِيْنِ﴾؛ فلم تقل: أهلكم المال، ولا: أفسدتكم النعمة، وإنما سمّت الداء باسمه الدقيق: الإلهاء؛ لأن أخطر ما يصنعه التكاثر ليس أنه ينتزع من الإنسان أمواله، بل أنه ينتزع منه انتباهه، ويستولي على مركز وعيه، ويملاً عليه لحظاته، حتى تمر حياته كلها وهو مشغول بشيء لم يسأل نفسه يوماً: إلى أين يأخذه؟

والإلهاء في التعبير القرآني أعمق من اللهو العابر؛ لأن الإنسان قد يلهو ساعة ثم يعود إلى رشده، أما أن يُلْهِى فذلك يعني أن قوة ما قد استولت على انتباهه وصرفته عما هو أولى به، حتى أصبح المهمش في حياته هو الأهم، وأصبح المصير مؤجلاً، والروح مهملةً، والآخرة بعيدةً عن مجال الشعور، مع أنها تقترب منه في كل نبضة. إن المأساة ليست أن الإنسان لا يعرف أنه سيموت؛ فهذه حقيقة لا يجادل فيها أحد، وإنما المأساة أنه يستطيع أن يعرف الموت بعقله ثم يعيش كأنه لن يموت، وأن يرى الجنائز تمر من أمامه ثم يعود إلى تنافسه القديم كأن الذين حُمِلُوا على الأعناق ذهبوا إلى مصيرٍ لا صلة له بمصيره. وهنا تكشف السورة عن قدرة العادة على تعطيل أعظم الحقائق: نرى المقابر ولا نتذكر الإقامة فيها، ونشجع الراحلين ولا نرى في رحيلهم صورتنا القادمة، ونعرف أن كل ما نتكاثر به سيبقى وراء ظهورنا، ثم نواصل الجمع كأننا سنحمله معنا إلى العالم الآخر.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

ولهذا لا تقف السورة عند تشخيص العلة، بل تسوق الإنسان من غفلته إلى قبره، ومن قبره إلى علمه، ومن علمه إلى معيّنته، ومن معيّنته إلى مساءلته؛ إنها رحلة خاطفة في ألقاظها، ولكنها تستوعب المسافة كلها بين الانشغال الدنيوي والوقوف بين يدي الله. تبدأ بإنسانٍ يلهث خلف المزيد، ثم تنتهي به واقفاً يسأل عن كل نعيمٍ مرّ به: من أين جاءه؟ وكيف تلقّاه؟ وفيم استعمله؟ وهل قاده إلى الشكر أم إلى الغفلة؟ وبين البداية والنهاية تنقلب صورة الوجود كلها؛ فالذي كان يظن نفسه مالكاً يكتشف أنه مسؤول، والذي كان يعدّ أمواله يكتشف أن أعماله هي التي كانت تُحصى، والذي كان ينظر إلى ما في أيدي الناس يجد نفسه أمام الحُجيم، والذي كان يسأل عن مزيد النعيم يصبح هو المسؤول عن النعيم الذي أُعطيّه.

وفي بنائها الداخلي تتحرك السورة عبر درجاتٍ متصاعدة من انكشاف الحقيقة. ففي البداية خبرٌ يصف الواقع: ﴿الْمَاكُرُ التَّكْوِيْنِ﴾، ثم نهايةٌ صادمة لهذا الانشغال: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾، ثم زجرٌ يهز غشاء الغفلة: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ثم كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثم انتقالٌ من غياب العلم المؤثر إلى حضوره: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِيْنِ﴾، ثم انتقالٌ أشد من العلم إلى الرؤية: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيْمَ﴾ ثم لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِيْنِ، ثم خاتمةٌ لا تترك النعمة بلا حساب: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيْمِ﴾. وكأن السورة تقول للإنسان: إن الحقيقة التي أبعدتها عن وعيك لن تظل بعيدةً عنك؛ فما لم تعرفه اليوم معرفةً توفظك، ستراه غداً رؤيةً لا تستطيع الإفلات منها، وما حسبتة ملكاً خالصاً لك سيعود إليك في صورة سؤال.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

وسوف تقوم رحلتنا في هذا الكتاب على قراءة السورة من داخل نظمها القرآني، لا على تحميلها أفكاراً غريبةً عنها؛ فنبداً بدلالة اللفظة في سياقها، وننظر في ترتيب الآيات، وانتقال الخطاب، وإيقاع التكرار، والعلاقة بين الإلهاء والعلم، وبين التكاثر والنعم، وبين المقابر والجحيم، ثم نفتح من هذا الأصل على الآفاق الإنسانية والحضارية التي تضيئها السورة. فالتدبر الحق لا يلغي التفسير، بل ينطلق منه؛ ولا يستبدل مراد الوحي بانفعال القارئ، بل يجعل انفعال القارئ ثمرة لفهم مراد الوحي. ولهذا سنحافظ على ظاهر النص ودلالته، ثم ننظر كيف يتجدد حضوره في النفس والمجتمع والحضارة، وكيف يفسر أمراض الاستهلاك، والتفاخر، والتنافس على الظهور، والإدمان على المقارنة، وتحويل الإنسان إلى رقم بين الأرقام، وتحويل العمر إلى رصيدٍ يُستهلك في إثبات الذات أمام الآخرين.

وسنميز كذلك بين الكثرة والتكاثر؛ فالكثرة قد تكون نعمةً وقوةً وخيراً إذا وُضعت في موضعها، وسُخرت للحق، وقامت على الشكر والعدل، أما التكاثر المذموم فهو حالة نفسية لا يطلب فيها الإنسان الشيء لحاجته أو رسالته، بل يطلبه ليغلب غيره في العدد والصورة والذكر. قد يتكاثر الناس بالأموال، وقد يتكاثرون بالأبناء والأنصار والمناصب والألقاب والكتب والمتابعين والمجالس والشهادات والمشروعات، بل قد يدخل التكاثر حتى إلى ميادين العمل الصالح إذا تحوّل العمل من عبادةٍ لله إلى صناعةٍ صورةٍ للنفس. وليس الفاصل بين الخير والفتنة هو حجم ما في اليد، وإنما حقيقة ما في القلب: أيمتلك الإنسان ما بين يديه، أم صار ما بين يديه يملكه؟ أيقود النعم إلى الشكر، أم يقود إلى

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

الغفلة؟ أيكون المزيد توسعةً في القدرة على الخير، أم توسعةً في مساحة الكبر والخصومة والقلق؟

إن سورة التكاثر لا تريد أن تخرج الإنسان من الدنيا، وإنما تريد أن تُخرج الدنيا من الموضع الذي لا يليق بها في قلبه. لا تطلب منه أن يكره النعمة، بل أن يعرف المنعم؛ ولا أن يحتقر المال، بل أن يرفض عبوديته؛ ولا أن يتوقف عن البناء، بل أن يعرف لأي غايةٍ يبني؛ ولا أن يفر من الحياة، بل أن يحياها وهو يدرك أنها ممرٌ لا مستقر، وأمانةٌ لا ملكية مطلقة، وموضع ابتلاءٍ لا ساحة استعراض. إنها تعيد ترتيب الأشياء في البصيرة: الله أولاً، والآخرة غاية، والدنيا طريق، والنعمة مسؤولية، والعمر رأس المال الحقيقي، والعمل هو الذي يعبر مع الإنسان من بيته إلى قبره، ومن قبره إلى موقف السؤال.

ومن هنا ستكون فصول هذا الكتاب انتقالاتاً متدرجاً مع إيقاع السورة: سنقف أولاً أمام التكاثر بوصفه صناعةً متواصلةً للفراغ تحت ستار الامتلاء، ثم تتأمل ذلك التعبير المزلزل: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾، وكيف يطارد الموت غفلة الإنسان من غير أن يطارد إنجازه النافع؛ ثم نقف مع تكرار الزجر والعلم المؤجل، ومع الفارق بين معلومةٍ عن الآخرة لا تغيّر صاحبها، وعلم يقينٍ يعيد تشكيل الحياة؛ ثم ننقل إلى مشهد الحليم حين يصبح الغيب منظوراً، وينتهي زمن الاختيار ويبدأ زمن المعاناة؛ ثم نختم بالسؤال عن النعم، هذا السؤال الذي يحوّل كل لحظة راحة، وكل جرعة ماء، وكل صحةٍ وأمنٍ وقدرةٍ وفرصة، من شيء مألوفٍ لا يلتفت إليه إلى أمانةٍ ذات معنى ومصير.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

هذه السورة ليست خطاباً للفقراء ضد الأغنياء، ولا للمنقطعين عن الدنيا ضد العاملين فيها، بل هي خطابٌ لكل قلبٍ يمكن أن يُلْهِى، ولكل إنسانٍ يمكن أن ينسى لماذا جاء وإلى أين يمضي. فقد يملك المرء القليل ويأكله التكاثر لأن عينه معلقةٌ بما في أيدي الناس، وقد يملك الكثير ويكون زاهد القلب لأن المال في يده لا في روحه، ينفقه في الحق ويشكر الله عليه ولا يقيس به قدره ولا قدر الآخرين. إن الفقر لا يعصم وحده من فتنة المقارنة، كما أن الغنى لا يحكم وحده على صاحبه بالغفلة؛ وإنما القضية كلها في المركز الذي يحتله الشيء داخل الإنسان: هل هو وسيلةٌ مأمورة، أم قبةٌ خفية تتجه إليها الروح؟

وسورة التكاثر، في نهاية الأمر، ليست سورةً عن الأشياء بقدر ما هي سورةٌ عن النظر إلى الأشياء؛ ليست عن النعيم وحده، بل عن الوعي بالنعيم؛ وليست عن الموت وحده، بل عن الحياة التي ينبغي أن يعيد الموت ترتيبها؛ وليست عن الجحيم باعتباره مشهداً آتياً فحسب، بل عن أثر اليقين به في كبح جنون الإنسان الحاضر. إنها توقظنا قبل أن نصير إلى يقظةٍ لا تنفع، وتُرينا بعين القلب قبل أن نرى بعين الرأس، وتضع السؤال أمامنا في الدنيا قبل أن نسمعه في الآخرة: ماذا صنعنا بما أُعطينا؟ وهل مررنا على النعيم كما يمر الغافل على الأشياء، أم تلقيناه بوصفه رسالة محبةٍ وابتلاء، فشكرنا، وعدلنا، وأحسنّا، وأدركنا أن قيمة النعمة لا تكمن في مقدار ما تمنحه أجسادنا من لذة، بل في مقدار ما توقظه في أرواحنا من معرفةٍ بالمنعم وخضوعٍ له وإحسانٍ إلى خلقه؟

تلك هي بوابة الرحلة: ثماني آياتٍ فقط، ولكنها تفتح على الإنسان قبره، وتكشف له بجيمه، وتضع النعيم الذي يملأ حياته في ميزان السؤال، ثم تتركه واقفاً أمام الحقيقة

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

العارية: لقد كان يعدُّ ما جمع، بينما كان الله يحصي كيف عاش؛ وكان يتنافس على المزيد، بينما كان عمره نفسه يتناقص؛ وكان يملأ خزائنه بما سيفارقه، ويترك قلبه خالياً مما سيذهب معه.

وفي الفصل الأول نبدأ مع الآية التي تختصر مأساة الإنسان المزدحم بكل شيء إلا بنفسه: ﴿الْهَٰكُمُ التَّكْوِيْنُ﴾.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

الفصل الأول

﴿الْهَآكُمُ التَّكْوِيْنُ﴾

حِينَ يَتَحَوَّلُ الْمَزِيْدُ مِنْ نِعْمَةٍ فِي الْيَدِ إِلَى فِتْنَةٍ فِي الْقَلْبِ

تبدأ السورة من غير نداء يهيج السامع، ولا مقدمة تخفف وقع الحقيقة، ولا وصفٍ طويلٍ للطريق الذي انتهى بالإنسان إلى غفلته؛ تبدأ مباشرةً بالحكم الكاشف: ﴿الْهَآكُمُ التَّكْوِيْنُ﴾. كلمتان فقط، لكنهما تشقان صدر الحضارة الإنسانية كلها، وتكشفان المحرك الخفي وراء كثيرٍ من سعيها واضطرابها وصراعاتها؛ فالإنسان الذي يظن أنه يتحرك بإرادته قد يكون في الحقيقة مدفوعاً بشهوة المزيد، والذي يتخيل أنه يجمع الأشياء قد تكون الأشياء هي التي تجمع شتات قلبه حولها، والذي يرى نفسه سيداً لما يملك قد يصبح عبداً لما يريد أن يملكه. والقرآن لا يطيل في وصف هذا المرض؛ لأن شدة العبارة تغني عن امتدادها، فكأن الآية يدّ تهرز الإنسان من كتفيه وتقول له: انتبه، لقد مضى من عمرك الكثير، لا لأنك كنت تفعل شيئاً عظيماً، بل لأنك كنت مشغولاً بإثبات أنك أكثر من غيرك.

لم تقل الآية: «اشتغلت بالتكاثر»، فالاشتغال قد يكون محموداً إذا اتجه إلى خير، ولم تقل: «أحببت الكثرة»، فقد يحب الإنسان سعة الرزق وكثرة الوسائل ليستعين بها على الحق، وإنما قالت: ﴿الْهَآكُمُ﴾؛ والإلهاء صرفٌ للإنسان عما هو أولى به إلى ما هو أدنى منه، واستيلاءً على الانتباه حتى تضطرب مراتب الأشياء في داخله. إن اللهو لا يُعرف بمجرد الشيء الذي يفعله الإنسان، بل بما صرفه ذلك الشيء عنه؛ فقد يكون العمل في ظاهره

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

جَادًّا، دَقِيقًا، مُتَعَبًّا، وَلَكِنَّهُ فِي مِيزَانِ الْمَصِيرِ لَهُوَ كَبِيرٌ إِذَا اسْتَهْلَكَ الْعَمْرُ كُلَّهُ وَأَبْعَدَ الْقَلْبَ عَنْ غَايَتِهِ. وَقَدْ يَجْلِسُ الْمَرْءُ خَلْفَ الْمَكَاتِبِ، وَيَعْقِدُ الصَّفَقَاتِ، وَيَطُوفُ الْبُلْدَانَ، وَيَبْنِي الْمَشْرُوعَاتِ، وَيَجْمَعُ الْأَرْقَامَ، وَيَبْدُو فِي أَعْيُنِ النَّاسِ نُمُودَجًا لِلْجِدِّ وَالْحِرْكَةِ، يَنْمُو تَسْمِي السَّمَاءِ حَيَاتِهِ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ: إِلْهَاءٌ؛ لِأَنَّهُ أَتَقَنَ الْوَسِيلَةَ حَتَّى نَسِيَ الْغَايَةَ، وَعَرَفَ كَيْفَ يَرْجِعُ الدُّنْيَا وَلَمْ يَسْأَلْ مَاذَا يَخْسِرُ مِنْ نَفْسِهِ، وَكَانَ مُنْشَغَلًا فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ حَاضِرًا فِي الْحَقِيقَةِ.

وَالْقُرْآنُ حِينَ يَقُولُ: ﴿أَلْهَأَكُمُ﴾ لَا يَذْكُرُ صِرَاحَةً مَا الَّذِي أَلْهَاهُمُ التَّكَاثُرُ عَنْهُ؛ فَلَمْ يَقُلْ: أَلْهَأَكُمُ عَنِ الصَّلَاةِ، أَوْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، أَوْ عَنِ الْآخِرَةِ، أَوْ عَنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِيقَةِ. وَهَذَا الْحَذْفُ يَفْتَحُ الْمَعْنَى وَلَا يَضْيِيقُهَا؛ فَقَدْ أَلْهَاهُمُ عَنْ كُلِّ مَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ مَرْكَزًا لِلْحَيَاةِ: أَلْهَاهُمُ عَنِ الْإِيمَانِ الْحَيِّ، وَعَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَعَنْ شُكْرِ النِّعْمَةِ، وَعَنْ تَدْبِيرِ الْمَصِيرِ، وَعَنْ إِصْلَاحِ الْقَلْبِ، وَعَنْ إِقَامَةِ الْعَدْلِ، وَعَنْ صَلَوةِ الْأَرْحَامِ، وَعَنْ نَصْرَةِ الضَّعِيفِ، وَعَنْ تَرْبِيَةِ الْأَبْنَاءِ، وَعَنْ التَّزَوُّدِ لِيَوْمِ الرَّحِيلِ، بَلْ أَلْهَاهُمُ حَتَّى عَنْ أَنْفُسِهِمْ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ حِينَ يَنْغَمِسُ فِي سَبَاقِ الْمَقَارَنَةِ لَا يَعُودُ يَعْرِفُ مَا يَرِيدُ حَقًّا، وَإِنَّمَا يَرِيدُ مَا يَجْعَلُ الْآخَرِينَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ بِوَصْفِهِ أَكْثَرَ مِنْهُمْ. يَفْقَدُ صَوْتَهُ الدَّاخِلِيَّ، وَتَتَحَوَّلُ رَغَبَاتُ الْمُجْتَمَعِ إِلَى رَغَبَاتِهِ، وَيَعِيشُ مُسْتَجِيبًا لِمَقَايِيسٍ لَمْ يَصْنَعْهَا، ثُمَّ يَمِضِي عَمْرُهُ فِي تَلْبِيَةِ مَطَالِبِ صُورَةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ لَا تُمَثِّلُ حَقِيقَتَهُ.

إِنْ أَخْطَرَ مَا يَفْعَلُهُ الْإِلْهَاءُ أَنَّهُ لَا يُشْعُرُ صَاحِبُهُ بِأَنَّهُ ضَائِعٌ؛ فَالضَّائِعُ الَّذِي يَعْرِفُ ضِيَاعَهُ قَدْ بَحِثَ عَنِ الطَّرِيقِ، أَمَّا الْمَلْهُي فَيُشْعِرُ أَنَّهُ يَتَقَدَّمُ، وَأَنْ أَيَّامَهُ مُتَمَلِّئَةٌ، وَأَنْ مَا يَفْعَلُهُ ضَرُورِيٌّ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْجِيلَ. يَعْطِيهِ التَّكَاثُرُ شَعُورًا كَاذِبًا بِالْجُدُوى، وَيَقْدَمُ لَهُ فِي كُلِّ

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

مرحلة هدفًا جديدًا؛ فإذا بلغ مقدارًا من المال فتح له باب مقدارٍ أكبر، وإذا نال منصبًا أراه منصبًا أعلى، وإذا اتسعت شهرته جعله يحصي من سبقوه، وإذا كثر أتباعه أفسد عليه فرحه من كان أكثر منه أتباعًا. إنه لا يمنع من الوصول فحسب، بل يسرق منه القدرة على تعريف الوصول؛ ولذلك لا يعرف له نهاية، لأن الغاية ليست امتلاك شيء محدد، وإنما التفوق على شخصٍ متجدد، وكلما تجاوز منافسًا ظهر له منافس آخر.

التَّكْوِيْنُ لَيْسَ هُوَ الْكَثْرَةُ

ثمة فرقٌ عميق بين الكثرة والتكاثر؛ فالكثرة وصفٌ لما اجتمع من الخير أو المال أو العلم أو القوة، وقد تكون محمودَةً إذا صلحت وجهتها، أما التكاثر فهو حركة نفسية واجتماعية يدخل فيها الإنسان في سباقٍ مع غيره ليكون أكثر منه. صيغة الكلمة تحمل معنى المشاركة والتغالب؛ فكأن كل طرفٍ لا ينظر إلى حاجته، وإنما ينظر إلى ما عند الآخر، ثم يعيد بناء رغبته على أساس تلك المقارنة. ومن هنا يبدأ القلق؛ لأن الإنسان لا يعود يقيس نعمة الله عليه بكفايته، بل يقيسها بما أوتي غيره، فتضيق في عينه النعم الكثيرة لا لأنها قليلة، وإنما لأنها أقل مما رآه في يد سواه.

قد يكون للإنسان بيتٌ يأويه، وطعامٌ يكفيه، وصحَّةٌ تحمله، وأهلٌ يحبونه، وقلبٌ يجد فيه بقية سكينه، ثم يرى من هو أوسع منه بيتًا أو أكثر ماله، فتسقط النعم كلها من وعيه، ويصبح ما ينقصه أكثر حضورًا مما أعطيه. لم تُسلب منه النعمة في الخارج، لكنها سُلبت منه في الشعور؛ ولم يفتقر لأن رزقه قل، بل افتقر لأن المقارنة أفسدت قدرته على رؤية الرزق. وهكذا يصنع التكاثر فقرًا لا تعالجه الأموال؛ لأنه كلها امتلأت اليد

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

اتسعت العين، وكلما ارتفع الرقم ارتفع معه السقف الذي يطلبه، حتى يصبح الإنسان محاطاً بأسباب الراحة، عاجزاً عن أن يرتاح.

الكثرة التي تُحمد هي التي توسّع أثر الإنسان في الخير، أما التكاثر فيوسّع صورة الإنسان في أعين الناس. الأولى تسأل: ماذا أستطيع أن أصنع بما أملك؟ والثاني يسأل: كيف سيبدو ما أملك؟ الأولى تجعل المال وسيلةً لإحياء المعاني، والثاني يجعل المعاني خدماً لزيادة المال. الأولى تبني المدارس وتطعم المحتاجين وتحفظ الكرامة وتحرر الإنسان من ذل السؤال، والثاني قد يبني بناءً هائلاً ليضع عليه اسم صاحبه، وينفق كثيراً لا ليحسن، بل ليُرى، ويحول العطاء نفسه إلى مسرحٍ خفيٍّ للتفوق.

ليست المشكلة إذن في الرقم، وإنما في علاقته بالقلب. قد يكون القليل تكاثراً إذا عاش صاحبه مهووساً به متفانراً على من دونه، وقد يكون الكثير شكراً إذا حمّله صاحبه بأمانة، وعرف حق الله فيه، ولم يجعل منه معياراً لكرامة الناس. ليس الزهد أن تكون الدنيا خاليةً من يدك، بل ألا يكون قلبك مملوئاً لها؛ وليس الغنى أن تتسع خزانتك، بل أن تتسع روحك فلا تحكم عليك الأشياء التي جمعتها. كم من إنسانٍ لا يملك إلا القليل، ولكنه يعبد صورة الغنى في داخله، وكم من غنيٍّ يمرّ المال من يده إلى وجوه الخير ولا يجد في نفسه حاجةً إلى أن يرفع به قدره فوق الناس.

حِينَ تَصِيرُ الْمُقَارَنَةُ قَدْرًا

التكاثر لا يستطيع أن يعيش وحده؛ إنه يحتاج دائماً إلى عينٍ تنتظر، ومنافسٍ يُقارن، وجمهورٍ يُصفق، وجدولٍ خفيٍّ تُرتب فيه مراتب الناس. ولو خلا الإنسان بنفسه،

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

وتحرر من نظرات الآخرين، وسأل قلبه بصدق: ما الذي أحتاج إليه لأعيش حياةً كريمةً ذات معنى؟ لسقطت رغبات كثيرة كان يظنها حاجات، ولرأى أن جانباً واسعاً من سعيه لم يكن من أجل نفسه ولا رسالته، بل من أجل أن يحجز موقعاً أعلى في مخيلة المجتمع.

حين يصير التكاثر ثقافةً عامة، لا يعود الناس يتنافسون في الأشياء فقط، بل يتنافسون في عرضها؛ فقد لا تكفي النعمة ما لم يرها الآخرون، ولا يكتمل الفرح بالنجاح حتى يُعرف من سبقهم صاحبه، ولا تُستقبل اللحظة الجميلة لذاتها، بل من خلال مقدار ما ستمنحه من ظهور. وهنا تتغير وظيفة الأشياء: لا يعود البيت مأوىً وسكنة، بل إعلاناً عن المكانة؛ ولا تصبح المعرفة هدايةً وبصيرة، بل لقباً يضاف إلى صاحبه؛ ولا يكون الكتاب أثراً يخدم الحقيقة، بل رقماً يضاف إلى قائمة المؤلفات؛ ولا تتحول المنزلة إلى قدرةٍ على الإصلاح، بل إلى ارتفاع على أكتاف الآخرين.

ومن أشد وجوه التكاثر خفاءً أن يدخل ميدان العلم والفكر والدعوة والعمل الصالح؛ فينشغل صاحب العلم بعدد من يقرأون له عن حقيقة ما يقدمه لهم، وينشغل صاحب الكتاب بعدد كتبه عن القيمة التي أضافها كتابه، وينشغل المتكلم باتساع شهرته عن صدق كلمته، وينشغل العامل بكثرة الأعمال عن إخلاص الوجهة. عندئذٍ تتكاثر الصور وتضمحل المعاني، وتكثر العناوين ويقل العلم، وتوسع دوائر الحضور ويضيق حضور القلب مع الله. وهنا تتجلى خطورة السورة؛ فهي لا تحاكم الأشياء بأسمائها الخارجية، بل بالنار التي تحركها في الباطن. قد يبدو الفعل طاعةً، بينما تحركه شهوة التكاثر، وقد يبدو الإنجاز خدمةً، بينما يطلب به صاحبه أن يصبح رقماً لا يتجاوز.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

إن النفس لا تقول لصاحبها صراحةً: تكاثر لتكبر؛ فهي أذكي من أن تكشف غايتها بهذا الوضوح. تقول له: افعل الخير، ولكن ليعرف الناس أنك فعلته؛ اكتب، ولكن لا تحتمل أن يكتب غيرك أكثر، تعلم، ولكن اجعل علمك سلباً لا حتقار من دونه؛ اجمع، ثم سمّ جمعك استعداداً للمستقبل ولو أفنيت الحاضر كله في خوفٍ لا ينتهي. وهكذا تلبس شهوة العدد ثياب الحكمة والطموح والاحتياط والإنجاز، حتى يحتاج الإنسان إلى بصيرةٍ شديدة ليميز بين طموح يعمر به الأرض وتكاثرٍ يخرّب به قلبه.

عُبُودِيَّةُ «الْمَزِيدِ»

للتكاثر كلمةٌ واحدة لا يكف عن ترديدها: المزيد. لكنها كلمةٌ بلا مقدار ولا نهاية. ليس لها جوابٌ تشبع عنده، لأنها لا تعبّر عن حاجةٍ محددة، بل عن فراغٍ يريد صاحبه أن يملأه من الخارج. غير أن فراغ الروح لا تملؤه كثرة الأشياء؛ فالأشياء تدخل الخزائن ولا تدخل الموضع الذي خُلق لمعرفة الله والأنس به. وكل محاولة لملء القلب بما لم يُخلق له تزيد اتساع الفراغ بدل أن تسده، كمن يشرب من ماءٍ مالح؛ كلما أكثر منه ازداد عطشاً.

يبدأ الإنسان طالباً للمال كي يتحرر من الخوف، ثم يتحول المال نفسه إلى مصدر خوفه؛ يخشى نقصه وضياعه، ويحصى احتمالات المستقبل، ويرى في كل منافسٍ تهديداً. ويطلب الشهرة كي يشعر بأنه موجود، ثم يصبح وجوده معلقاً بألسنة الناس ونظراتهم؛ فإن انصرفوا عنه ظن أنه تلاشى. ويطلب المنصب ليملك القدرة، ثم يمتلكه المنصب، فلا يعود يعرف نفسه خارجه ولا يحتمل أن يراه الناس دونه. هكذا ينقلب التكاثر على

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

صاحبه: يعده بالسيادة ثم يأخذه إلى العبودية، ويعده بالأمان ثم يجعله حارساً مدعوراً لما جمع، ويعده بالامتلاء ثم يتركه أكثر الناس إحساساً بالنقص.

والقرآن لا يعادي الطموح؛ فقد دعا إلى المسارعة في الخيرات والمسابقة إلى المغفرة، لكنه يغير ميدان السباق. هناك فرقٌ بين إنسانٍ يريد أن يكون عمله أحسن، وإنسانٍ يريد أن يكون ذكره أكثر؛ بين من ينافس ليقترّب من الحق، ومن ينافس ليعلو على الخلق. الطموح الإيماني يجعل الإنسان مسروراً بكل خيرٍ تحقق ولو جرى على يد غيره، أما التكاثر فيحزنه نجاح الآخرين لأنه لا ينظر إلى الخير نفسه، بل إلى موقعه الشخصي في ساحة الخير. الأول يقول: المهم أن ينتصر الحق، والثاني يريد للحق أن ينتصر من خلاله وحده، فإن جرى النصر على يد سواه ضاق به.

من هنا يمكن للإنسان أن يختبر قلبه: هل يفرح إذا تحقق الأمر الحسن على يد غيره؟ هل يستطيع أن يعمل عملاً لا يُذكر اسمه عليه؟ هل تهدأ روحه إذا أخذ حاجته، أم تظل منشغلاً بما بقي في أيدي الناس؟ هل يرى النعمة مسؤولية أم شهادة تفوق؟ إن الإجابة الصادقة عن هذه الأسئلة تكشف المسافة بين الكثرة النافعة والتكاثر الملهي.

الْعَمْرُ الَّذِي يُسْرَقُ بِهِ دُورٌ

لم تقل الآية إن التكاثر أذهب أموالكم، بل إنه ألهى قلوبكم؛ لأن ما يسرقه في الحقيقة أعلى من المال: يسرق العمر. والإنسان يستطيع أن يعوض ماله خسرته، وأن يبني بيتاً تهدم، وأن يسترد منزلاً فائته، لكنه لا يستطيع أن يستعيد يوماً واحداً ذهب منه. ومع ذلك ينفق أثمن ما يملك ليجمع ما هو أدنى منه؛ يبدد العمر في تحصيل المال، ثم يبدد

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

المال في محاولة استرداد صحة أعضائها أثناء تحصيله، ويفقد قرب أهله ليصنع لهم مستقبلاً، فإذا جاء المستقبل وجدهم قد كبروا بعيداً عنه، ويؤجل الراحة حتى يفرغ، لكنه لا يفرغ؛ لأن التكاثر لا يمنح صاحبه لحظة إعلان الاكتفاء.

إن في لفظ ﴿أَلْهَاكُمْ﴾ إيحاءً بزمْنٍ مضى؛ لقد وقع الإلهاء واستمر، وها هو الوحي يكشفه قبل أن ينتهي العمر. وهذه رحمة مضمرة في قسوة التنبيه؛ فما دام الخطاب يُسمع، فلا يزال في الوقت بقية للعودة. ليست الآية حكماً نهائياً بإغلاق الطريق، وإنما جرسٌ مبكرٌ قبل أن تبلغ القافلة المقابر. إنها تقول للإنسان: لقد أخذ منك شيءٌ من العمر، فلا تسلم بقيته؛ لقد شُغلت بما فني، فلا تجعل كل حياتك ثمناً له؛ أعد الأشياء إلى أحجامها قبل أن يأتي الموت فيعيدها رغماً عنك.

وما أكثر الذين ينتهبون متأخرين؛ حين تضعف الأجساد، ويتفرق الرفاق، وتبدل المواقع، ويكتشف المرء أن صحباً كثيراً كان يملأ حياته لم يترك في روحه أثراً، وأن أشياء ظنها عظيمةً صارت في ذاكرته صغيرة، بينما بدت له لحظات الإحسان والصدق والقرب من الله أثمن ما بقي. غير أن سورة التكاثر لا تريد للإنسان أن يتعلم هذه الحكمة بعد أن تنفذ قدرته على العمل؛ تريد أن يراها الآن، وهو ما يزال يستطيع أن يغيّر اتجاهه، وأن يجعل من النعمة جسراً لا قيداً، ومن الكثرة قوةً للحق لا مادةً للتفاخر.

قد يملك الإنسان من الوسائل ما لم تملكه أجيالٌ قبله، ومع ذلك يعيش أشد منها حيرةً واضطراباً؛ لأن وفرة الوسائل لا تجيب عن سؤال الغاية. يستطيع أن يصل إلى الأماكن البعيدة، لكنه لا يعرف إلى أين يمضي بحياته؛ ويستطيع أن يتواصل مع آلاف الناس، لكنه يعجز عن الأُنس بنفسه؛ وتأتيه الأخبار من أطراف الأرض، لكنه يجهل الخبر المتعلق بمصيره؛ وتزدحم ذاكرته بالمعلومات، بينما يظل قلبه خالياً من الحكمة. إنها صورة حضارية مكبرة لمعنى ﴿أَلْهَأَكُمُ التَّكْوِيْنُ﴾: ازديادٌ في القدرة، ونقصٌ في الاتجاه؛ اتساعٌ في الوسيلة، وفراغٌ في المعنى؛ كثرةٌ في الاتصال، ووحشةٌ في الروح.

ليس كل تقدمٍ اقتراباً؛ فقد تسارع الحركة في الاتجاه الخطأ، وعندئذٍ لا تزيد السرعة صاحبها إلا بُعداً. والتكاثر يمنح الإنسان إحساساً دائماً بالحركة كي لا يترك له وقتاً يسأل فيه عن وجهتها؛ فالوقفة الصادقة خطرٌ عليه، والصمت الذي يسمع فيه الإنسان قلبه قد يفضح زيف السباق كله. لذلك يملأ التكاثر الفراغ بالضجيج، ويجعل الإنسان ينتقل من هدفٍ إلى آخر قبل أن يتأمل قيمة ما حققه، ويغريه بأن الراحة والسعادة تنتظرانه بعد الإنجاز القادم، ثم ينقل الوعد كلما وصل إلى مسافةٍ أبعد.

القرآن هنا يحذر الإنسان من سحر الكثرة، فلا يعود الرقم في ذاته دليلاً على القيمة، ولا الانتشار برهاناً على الحق، ولا ارتفاع الصوت علامةً على عمق المعنى. قد يكثر الباطل ويبقى باطلاً، وقد يقل أهل الحق ولا تنقص الحقيقة بقلَّتْهم. وقد يكون العمل الصغير الصادق أثقل في ميزان الله من ضجيجٍ إنجازٍ هائلٍ أفسده الرياء. إن ميزان السماء لا

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

يسأل أولاً: كم صنعت؟ بل: ماذا أردت بما صنعت؟ وكيف صنعت؟ وما الأثر الذي تركه عملك في قلبك وفي حياة الناس؟

مَنْ الْمَلِكِيَّةُ إِلَى الْأَمَانَةِ

العلاج الذي تفتحه الآية ليس إلغاء الملكية، بل تصحيح معناها. ما في يد الإنسان ليس جزءاً خالداً من ذاته، وإنما أمانةً عابرة وصلت إليه في زمن، وستخرج من يده في زمن آخر. قد يظن أنه جمع المال، والحقيقة أن الله جمعه عنده ليختبره به؛ وقد يظن أن النعمة جاءت لتثبت منزلته، والحقيقة أنها جاءت لتكشف موقفه. وحين يفهم الإنسان هذا، يتحول السؤال من: كم أملك؟ إلى: كيف أؤدي حق ما أملك؟ ومن: ماذا يزيدني هذا أمام الناس؟ إلى: ماذا يزيدني عند الله؟

هناك يخرج المال من كونه هويةً إلى كونه وظيفة، ويخرج العلم من كونه زينةً للعقل إلى كونه تكليفاً، وتخرج الشهرة من كونها مادةً للذات إلى كونها مسؤوليةً عن الأثر، وتخرج القوة من نشوة التسلط إلى واجب الحماية والعدل. لا يعود المزيد مطلوباً لذاته، وإنما بقدر ما يفتح من أبواب الخير. فإن جاءت الكثرة شكر الإنسان، وإن تأخرت لم يشعر أن إنسانيته ناقصة؛ لأنه يعرف أن قدره لا تحدده الأشياء التي دخلت يده، بل العبودية التي عمرت قلبه والعمل الذي قدمه.

وهكذا تقف الآية الأولى كمرآة لا يستطيع أحد أن يمر أمامها من غير أن يرى شيئاً من نفسه. لكل إنسان تكاثره الخاص، والشيء الذي يخشى أن يكون غيره أكثر منه فيه، والميدان الذي يستنزف قلبه في المقارنة. وقد لا يُشفى من هذا الداء حتى يسميه

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

بصدق، ويدرك أن المشكلة ليست فيما يملكه الآخرون، بل في السلطة التي منحها
لنظراتهم على قلبه.

ثم تأتي الآية التالية لتكشف النهاية التي كان التكاثر يخفيها عن صاحبه. فبينما كان
الإنسان يكرر كلمة «المزيد»، كان العمر يقترب به من الحد الذي لا يستطيع بعده أن
يزيد شيئاً، وبينما كان يبني ملكيته فوق الأرض كانت تُهيأ له حفرةٌ تحتها، وبينما
كان يزاحم الأحياء في أعدادهم وأموالهم وأمجادهم كان يسير، من حيث لا يشعر،
إلى جماعةٍ لا تفاخر بينها ولا منافسة:

﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.

وهناك يبدأ الفصل الثاني: حين يقطع القبر سباق التكاثر، ويسقط عن الإنسان ما كان
يظنه تعريفاً خالداً لذاته.

حِينَ يَنْقُطِعُ سَبَاقُ الْأَعْدَادِ وَيَدْخُلُ الْإِنْسَانُ وَحْدَهُ فِي ضَيْقِ الْحَقِيقَةِ

تجيء كلمة ﴿حَتَّى﴾ كحدِّ فاصلٍ بين صنفين متناقضين: صنف الحياة حين يتكاثر الناس، وصنف المقابر حين تسقط من أيديهم الأشياء التي تكاثروا بها. إنها تكشف أن للتكاثر نهايةً لم يكن المتكاثر يريد أن يراها، وأن السباق الذي بدا ممتدًّا بلا غاية لم يكن في الحقيقة يمتد إلا إلى حافة القبر. كان الإنسان يقول: المزيد، وكان الموت يقول: إلى هنا؛ وكان يمد يده إلى شيءٍ جديد، بينما كان عمره يُسحب من الجهة الأخرى، وكان يحصي ما أضيف إلى ملكه، ولا يحصي ما نُقص من أجله. حتى إذا امتلأت خزائنه، أو قاربت أن تمتلئ، وجد أن الوعاء الذي كان ينبغي أن يستمتع بها قد تهدم، وأن اليد التي جمعت لم تعد قادرةً على القبض، وأن العين التي طالما نظرت إلى ما عند الآخرين قد أغمضت، وأن الجسد الذي خدم مشروع التكاثر كله قد حُمِّل على أكتاف الرجال إلى موضع لا يدخل معه فيه شيءٌ مما جمع.

لم تقل الآية: «حتى تم»، مع أن الموت هو الحقيقة المقصودة في هذا السياق، وإنما قالت: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾؛ فتحوَّلَت النهاية في التعبير إلى زيارة، والمقابر إلى محطةٍ لا مقرٍّ أبدي. والزائر لا يقيم إلى الأبد، بل يمكث زمنًا ثم يغادر إلى وجهةٍ أخرى. وفي هذه الكلمة الصغيرة يفتح أفق البعث كله؛ فالقبر ليس خاتمة الإنسان، وإنما أول منازل انتقاله من عالم العمل إلى عالم الجزاء، وليس ترابًا يبتلع القصة إلى غير رجعة،

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

بل موضع انتظارٍ إلى اليوم الذي تُستخرج فيه الأجساد وتُعرض فيه الأعمال. إن الذين دخلوا المقابر لم ينتهوا؛ لقد خرجوا فقط من مجال أبصارنا، أما هم فقد دخلوا في طورٍ آخر من أطوار الوجود، وستنتهي زيارتهم حين ينفخ في الصور ويقوم الناس لرب العالمين.

وهذا التعبير يهدم وهمين في وقتٍ واحد: وهم الإنسان الذي ظن الدنيا دار إقامة، وهم المادي الذي ظن القبر نهاية المصير. فالدنيا أقصر من أن تكون وطنًا أبدياً، والقبر أضيق من أن يكون الغاية النهائية للخلق. الإنسان مسافرٌ في الدارين؛ يمر بالدنيا ثم يزور القبر، حتى يستقر في الدار التي لا انتقال بعدها. ومن لم يعرف موضع كل مرحلة أخطأ في ترتيب حياته: يعامل الدنيا كأنها الأبد، ويعامل الآخرة كأنها احتمال، وينفق يقينه على العاجل، ولا يترك للغيب إلا فتات الظن.

الْحَيَاةُ الَّتِي انْتَهَتْ قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ

إن في الآية تصويراً مؤلماً لحياةٍ استغرقها التكاثر حتى انتهت قبل أن ينتبه صاحبها إلى حقيقتها. لم تقل: ألهاكم التكاثر زمنًا ثم رجعت، أو ألهاكم حتى شبعتم، أو ألهاكم حتى عرفتم خواءه؛ بل امتد الإلهاء حتى زرتم المقابر. أي إن بعض الناس لا يقطع علاقتهم المرضية بالمزيد إلا الموت؛ يظنون يؤجلون التوبة، والسكينة، والإنفاق، وصلة الرحم، والجلوس مع أرواحهم، حتى يأتي الأجل فيوقف بالقوة ما لم توقفه الحكمة.

كم يقول الإنسان: حين أفرغ سأعود إلى نفسي، وحين تستقر أموري سأصلح علاقتي بري، وحين يكثر مالي سأنفق، وحين يثبت موقعي سأطمئن، وحين أنهي هذا المشروع

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

سأمنح أهلي وقتاً، لكنه لا يفرغ؛ لأن كل إنجازٍ يلد مشروعاً، وكل مرتبةٍ تفتح أمامه مرتبة، وكل رغبةٍ إذا تحققت أنشأت في جوارها رغبات. ويظل المستقبل يبتلع الحاضر، حتى يصبح العمر كله غرفة انتظارٍ لحياةٍ لم تأت، ثم يأتي الموت فيكتشف الإنسان أن الأيام التي كان يعبر فوقها مسرعاً للوصول إلى الحياة كانت هي الحياة نفسها.

وهذه من أعظم خدع التكاثر: أنه يجعل الإنسان يضحي بالموجود من أجل الموعود، ثم لا يمنحه الموعود قط. يستهلك صحته كي يجمع أسباب الراحة، ويغادر راحته كي يحرس ما جمع، ويتبعد عن أحبته ليصنع لهم السعادة، فإذا عاد إليهم وجد المسافات قد استقرت في القلوب. إنه يطلب من الإنسان عمره كاملاً، ثم يمنحه أشياء لا يستطيع حمل شيءٍ منها حين ينتهي العمر.

عِنْدَ الْقَبْرِ تَسْقُطُ الْأَلْقَابُ

ما قبل المقبرة عالمٌ مزدحمٌ بالفروق: هذا غني، وهذا فقير، وهذا مشهور، وهذا مغمور، وهذا صاحب منصب، وهذا لا يعرفه أحد. أما عند باب القبر فتبدأ الأشياء في استرداد أحجامها الحقيقية؛ يُنزع عن الإنسان ثوبه الذي ميزه، ويترك منزله الذي اتسع له، ويغادر الاسم الذي سبقته الألقاب، ولا يُحمل معه إلا جسدٌ لف في كفنٍ وعملٌ لا تراه أعين المشيعين.

لا تسأل المقبرة القادم إليها عن مساحة بيته، ولا عن رصيد حسابه، ولا عن عدد أتباعه، ولا عن المقاعد التي كان يتقدم بها المجالس. لقد انتهى هناك نظام التصنيف

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

الدنيوي كله، وبدأ ميزان آخر لا يُوزن فيه المرء بما ظهر عليه، وإنما بما استقر في قلبه وصدقه عمله. قد يُدفن صاحب الملايين إلى جانب فقيرٍ لم يملك قوت يومه، فلا يتسع قبر الأول بماله، ولا يضيق قبر الثاني لفقره؛ إنما الذي يصحبهما هو ما قدماه.

غير أن القرآن لا يذكر المقابر ليقول إن الناس يتساوون بعدها في المصير؛ فالموت يسوي بين الأجساد في مغادرة الدنيا، لكنه لا يسوي بين الأعمال عند الله. يخرج الجميع من الأسماء والأموال والمظاهر، ثم تتجلى الفروق الحقيقية: فرق الإيمان والكفر، والصدق والنفاق، والعدل والظلم، والشكر والجحود، والعمل الصالح والعمل الفاسد. لقد كانت الدنيا تخفي هذه الفروق خلف المظاهر، فجاء الموت ليهدم الواجهات ويبقي الحقائق.

والقبر لا يجعل الملك والفقير سواءً لأن الملك كان باطلاً أو المال شراً في ذاته، وإنما لأن السلطة والمال كانا أداتين انتهى زمن استعمالهما وبدأ زمن السؤال عنهما. لن يُسأل الإنسان لماذا لم يكن غيره، وإنما عما صنع بما كان هو؛ ولن يحاسب الفقير على خزائن لم تُعط له، ولا الغني على فقرٍ لم يعشه، بل يحاسب كل امرئ على موقعه وقدرته ونيته. ومن هنا لا يكون ذكر القبر دعوةً إلى تعطيل الحياة، بل دعوةً إلى تطهيرها من الوهم: اعمل، وابن، واكسب، وتعلم، ولكن لا تنس أن قيمة ما تجمع لا تظهر في لحظة امتلاكه، بل في الجواب الذي تقدمه عنه بعد مفارقتة.

التَّكْوِيْنُ بِالْمَوْتِ

يحمل قوله تعالى: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ صورةً أخرى ذكرها أهل التفسير، وهي أن التفاخر بلغ بعض الناس أن تفاخروا بكثرة رجالهم وأحسابهم، فلما استنفدوا عدّ

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

الأحياء ذهبوا إلى المقابر يعدّون موتاهم، ويقول كل فريق: منا فلان وفلان. وهذه الصورة، وإن ارتبطت بمشهد اجتماعي معروف، تكشف مرضاً يتكرر بأشكال مختلفة: أن يعجز الإنسان عن صناعة قيمة حاضرة، فيستعير من الموتى أمجادهم، وأن يحول التاريخ من أمانةٍ للتعليم إلى مخزنٍ للتفاخر.

ليس مذموماً أن يعرف الإنسان فضل أسلافه ويحفظ سيرتهم ويترحم عليهم، بل الوفاء من مكارم الأخلاق، وإنما المذموم أن يجعل مآثرهم بدلاً من عمله، وأن يطلب لنفسه منزلةً لم يدفع ثمنها، وأن يعيش على رصيد أسماءٍ عظيمة من غير أن يحمل شيئاً من مبادئها. قد يفخر الناس بعالمٍ كان في أسرته ولا يطلبون علمه، أو بشجاع خرج من قبيلتهم ولا يقفون موقفه، أو بصالح ينتسبون إليه ولا يسلكون طريقه. كأنهم يأخذون من الميت اسمه ويتركون قيمه في قبره.

وحين تدخل العصبية في التكاثر، يتحول الموتى إلى أرقامٍ في معركة الأحياء، ويصبح التاريخ ساحةً لتضخيم الذات الجماعية. لا يعود السؤال: ماذا تعلمنا من سبق؟ بل: كم كان فينا من العظماء؟ ولا يعود المجد تكليفاً أخلاقياً يثقل كاهل الوارث، بل وساماً مجانياً يعلقه على صدره. غير أن القرآن يعيد الإنسان إلى مسؤوليته الفردية؛ فالانتساب لا يورث التقوى، ومجد الآباء لا يُغني عن الأبناء، والإنسان لا يُبعث داخل قائمة قبيلته أو حزبه أو جماعته، بل يُبعث فرداً حاملاً لكلمته.

إن أعظم ولاءٍ للعظماء ألا تتكاثر بأسمائهم، بل نواصل ما أقاموه من حق؛ وأصدق الانتماء إلى الصالحين ألا نستخدمهم لصناعة مكانتنا، بل نخجل من التقصير في حمل

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

رسالتهم. أما من أخذ شرف النسب وترك واجب الاقتداء فقد جمع صورة المجد وفرط في جوهره.

الْقَبْرُ الَّذِي نَعْرِفُهُ وَلَا نَرَاهُ

لا يحتاج الإنسان إلى برهانٍ على الموت؛ فهو أكثر حقائق الحياة ظهوراً، ومع ذلك يتعامل معه كأنه خبرٌ يخص الآخرين. يرى الجنائز، ويدخل المقابر، ويقرأ أسماء الراحلين، لكنه يحتفظ في داخله بمسافةٍ نفسية تفصل مصيره عن مصيرهم. يقول: مات فلان، ولا يسمع في العبارة أن دوره يقترب؛ ويرى القبر مخفواً، ولا يرى فيه صورته.

ليست الغفلة جهلاً بوجود الموت، بل عجزاً عن إدخاله في بناء الحياة. قد يوقن الإنسان بأنه سيموت، ثم يخطط ويرغب ويخاصم ويجمع كما لو كان مستثنىً من الفناء. المعلومة موجودة، لكن سلطانها غائب؛ ولهذا لا تطلب السورة من الإنسان معرفةً ذهنيةً جديدة، بل تريد أن تنقل الموت من هامش وعيه إلى مركزه، لا ليصاب بالشلل والخوف، وإنما ليستقيم ميزانه.

ذكر الموت في التصور الإيماني ليس إطفاءً للحياة، بل تحريراً لها من التوافه. الإنسان الذي يتذكر النهاية لا يلزم أن يكون عابساً منقطعاً، بل قد يكون أقدر الناس على الحب والعطاء؛ لأنه يعرف أن الفرصة قصيرة، فلا يؤجل كلمة الخير، ولا يستكثر الاعتذار، ولا يستهلك أيامه في خصوماتٍ سيستحي منها حين تتكشف المقاييس. الموت لا يقول له: لا تعش، وإنما يقول: لا تبدد الحياة التي لن تتكرر.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

حين يحضر الموت في البصيرة تتساقط معارك كثيرة كان الإنسان يمنحها أكبر من حجمها، ويخجل من أحقاد حملها طويلاً، ومن علاقات قطعها إرضاءً لكبريائه، ومن ساعات أنفقها في مراقبة ما عند الناس. عندها يفهم أن صفاء القلب ليس ترفاً، وأن المسارعة إلى الخير ليست نشاطاً مؤجلاً، وأن أعظم الخسارة أن يصل المرء إلى قبره مثقلاً بأشياء كثيرة، خفيفاً من الأعمال التي تنفعه.

الزِّيَارَةُ الَّتِي يَعْقِبُهَا الْبَعْثُ

إن تسمية دخول المقابر زيارةً تفتح نافذة الرجاء والرهبة معاً. هي رجاء لأن الإنسان لم يُخلق ليذوب في التراب ويصير عدماً، بل ينتظره بعثٌ ترد فيه الأرواح إلى الأجساد ويقوم الخلق بين يدي ربهم. وهي رهبة لأن الخروج من القبور ليس عودةً إلى التكاثر، بل خروجٌ إلى الحساب؛ فلا فرصة هناك لإضافة عمل، ولا لإعادة ترتيب السجل، ولا لشراء لحظة واحدة من زمن التكليف.

في الدنيا يستطيع الإنسان أن يغيّر، ويتوب، ويرد الحقوق، ويشكر النعم، ويصح وجهته. أما حين تبدأ زيارة القبور فقد أغلقت ساحة العمل، وبقيت آثار ما سبق. والناس حين يدفنون شخصاً يقولون: انتهى، بينما الحقيقة أن زمن اختياره هو الذي انتهى، أما نتائج اختياره فقد بدأت تظهر. كان الموت غائباً عن عينه حاضراً في مستقبله، ثم يصبح عند القبر حاضراً في عينه، لكن المعرفة تأتي بعد فوات إمكان التعديل.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

ولهذا فإن السورة لا تريد أن تخبر الميت، بل أن توقظ الحي؛ فالخطاب رحمةً بمن لا يزال يستطيع أن يسبق «حتى». تستطيع الآن أن تقطع الإلهاء قبل أن يقطعه الموت، وأن تزور المقابر بقلبك قبل أن تزورها بجسدك، وأن تعيد توزيع العمر على ما يستحق قبل أن ينتهي العمر. تستطيع أن تجعل الموت مستشاراً صامتاً في قراراتك: هل يستحق هذا الأمر أن أنفق فيه جزءاً من حياتي؟ هل أقبل أن ألقى الله بهذه الخصومة؟ هل ما أجمعه يخدمني في رسالتي أم يستهلكني؟ ماذا يبقى من هذا كله إذا وقفت وحدي في قبوري؟

مَاذَا يَدْخُلُ مَعَكَ؟

حين يحمل الناس الميت، يبدو أنه يغادر كل شيء، لكن الحقيقة أن شيئاً واحداً لا يغادره: عمله. يخرج من البيت ولا تخرج معه ملكيته، وغادر المجلس ولا تتبعه مكانته، ويسقط اسمه من الوظيفة، ويبدأ هاتفه، ويُقسم ماله، ويعود المشيعون إلى أيامهم، ويبقى هو مع ما قدم. هناك يفهم الإنسان متأخراً أن العمل الصالح لم يكن شيئاً يمنحه للآخرين وحدهم، بل كان الشيء الوحيد الذي يدخره لنفسه حقاً، وأن المال الذي أنفقه في الخير لم يخرج من ملكه في المعنى الأخروي، بل انتقل من خزانة الفناء إلى رصيد البقاء.

كم يبدو الإنفاق في الدنيا نقصاً حين يُنظر إليه بعين التكاثر، ثم يظهر في الآخرة أنه الزيادة الحقيقية. وكم يبدو الاحتفاظ بالأشياء ربحاً، ثم يُكتشف عند الموت أنه تسليمٌ لها إلى الورثة من غير أن يصحب صاحبها منها إلا سؤالها. ليس لك من مالك على

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

الحقيقة إلا ما استعملته في حق، وما أطعمت، وما كسوت، وما علمت، وما حفظت به كرامةً، وما أصلحت به حياة. أما ما تكس من غير رسالة، فقد كنت حارساً له أكثر مما كنت مالكا.

القبر يعيد تعريف الملكية: ما بقي خلفك لم يكن لك بالمعنى الكامل، وما سبقك من صالح العمل هو الذي صار لك. ومن أدرك هذه الحقيقة لم يزهد في الإعمار، بل زهد في الوهم؛ يبني بإتقان، لكنه لا يبني ذاته من حجارة بيته، ويجمع بحلال، لكنه لا يجمع قلبه حول المال، ويورث أبناءه ما ينفعهم، لكنه يعلم أن أعظم ما يورثهم إيمانٌ وقيمةٌ وسيرةٌ طيبة.

«حَقِّي» الَّتِي لَا نَعْرِفُ مَوْعِدَهَا

أشد ما في الموت أن موعده مستور؛ فكل إنسانٍ يعرف أن له «حقِّي»، لكنه لا يعرف أين تقع في سطر عمره. قد تكون بعد عقود، وقد تكون أقرب من الخطوة التي يضعها لغده. وهذا الجهل ليس نقصاً في الحكمة، بل جزءٌ من الامتحان؛ فلو عرف الإنسان موعد موته لأجل التوبة إلى جواره، ولتحولت العبادة عند كثيرين إلى استعدادٍ محسوب، لكن خفاء الأجل يجعل القلب مطالباً بأن يكون حاضراً، والعمل مستعداً لأن يكون خاتمة.

لا يعني ذلك أن يعيش الإنسان مذعوراً من كل لحظة، وإنما أن يحيا بلا ديونٍ أخلاقيةٍ يتعمد تأجيلها: لا يؤخر توبةً يعرف حاجته إليها، ولا يبيت مصراً على ظلم، ولا يحتفظ باعتذارٍ واجب، ولا يجعل العمر كله وعداً مؤجلاً بالاستقامة. فالاستعداد

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

للموت ليس أن نتوقع ساعته، بل أن تصلح حالك بحيث لا يفاجئك وأنت مصرٌّ على ما تستحي أن تلقى الله به.

وفي هذا المعنى تصبح المقابر مدرسةً للأحياء؛ لا تعلمهم كراهية الدنيا، بل تعلمهم قدرها. فهي جميلةٌ بمقدار ما تُزرع فيها للآخرة، وخطيرةٌ حين تُتخذ بديلاً عنها. وكل نعمةٍ فيها تزداد جمالاً حين نعرف أنها عابرة؛ لأن فناء اللحظة يجعل شكرها أعمق، وقصر اللقاء يجعل الرحمة أوجب، ومحدودية العمر تجعل العمل أثمن.

وهكذا تنتهي مرحلة الإلهاء عند حافة القبر، لكن الحقيقة لا تنتهي هناك. لقد كان الإنسان في الدنيا يستطيع أن يغطي صوت المصير بضجيج التكاثر، أما بعد الموت فلا أسواق للمقارنة، ولا جماهير للتصفيق، ولا أرقام تمنحه الوهم بأنه آمن. هناك يبدأ العلم الذي لم يكن يريد أن يتعلمه، وتنكشف له قيمة ما فرط فيه.

ومن أعماق هذا الصمت تأتي الضربة القرآنية التالية، لا مرةً واحدة، بل مرتين، كأن غشاوة التكاثر لا يمزقها تنبيهٌ عابر:

﴿كَأَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾﴾

وفي الفصل الثالث نقف أمام هذا الزجر المتكرر، وأمام العلم الذي ظل الإنسان يؤجله حتى جاءه في وقتٍ لا يستطيع فيه أن يغير شيئاً.

الفصل الثالث

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾

حِينَ تَسْقُطُ الْأَوَاهِمُ وَبِجْءِ الْعِلْمِ بَعْدَ انْقِضَاءِ زَمَنِ الْإِخْتِيَارِ

بعد أن كشفت السورة مرض التكاثر، ومدّت خطه حتى انتهى بالإنسان إلى المقابر، جاءت كلمة ﴿كَلَّا﴾ كضربة تقطع اندفاع الوهم، وترد النفس عن الطريق الذي استسلمت له. ليست «كلا» هنا تفصيلاً في حجة، ولا هدوءاً في نصيحة، بل زجرٌ يحمل في نبرته قوة الحقيقة حين تصطدم بالغرور: كلا، ليس الأمر كما تتصورون؛ ليست كثرة ما تجمعون دليلاً على ارتفاع أقداركم، وليست الدنيا داراً تبقون فيها، وليس القبر عدماً تنتهون إليه، ولن تضعي الأعمار من غير حساب، ولن تمر النعم من غير سؤال، ولن يبقى ذلك البناء الضخم الذي أقتنموه من الأرقام والمظاهر قائماً حين يحضر ميزان الله.

إن الإنسان في فتنه التكاثر لا يعيش داخل الأشياء وحدها، بل داخل تفسيرٍ كاملٍ للوجود: يظن أن ما يرى هو الحقيقة كلها، وأن العاجل أولى من الآجل، وأن القيمة تُقاس بما ظهر للناس، وأن النجاح هو القدرة على امتلاك المزيد، وأن الموت بعيدٌ بما يكفي ليظل مؤجلاً في الوعي. فجاءت ﴿كَلَّا﴾ لا لتنقض فعلاً واحداً، بل لتهدم هذا التصور من أساسه. إنها كلمة تصحيح كبرى، تنزع عن الدنيا ادعاءها بأنها كل شيء، وعن الإنسان توهمه أنه المالك المطلق، وعن التكاثر قدرته على تقديم نفسه غايةً جديرةً باستهلاك العمر.

«كَلَّا»: إِيْقَافُ الْإِنْدِفَاعِ قَبْلَ السُّفُوْطِ

في «كلا» قسوةٌ ظاهرة، لكنها قسوة الإنقاذ؛ كالصوت الذي يرتفع في وجه غافلٍ يوشك أن يهوي من حافةٍ لا يراها. إن الوحي لا يزجر الإنسان ليحرمه لذة الحياة، بل لينعه من تحويل اللذة العابرة إلى خسارةٍ باقية، ولا يقطع عليه سباق التكاثر لأنه يريد له العجز والفقر، بل لأنه يعرف أن هذا السباق لا يملك خط نهايةٍ يمنح صاحبه الطمأنينة. كلما ظن أنه وصل، اكتشف أن قلبه قد نقل الغاية إلى موضعٍ أبعد.

قد لا توقظ الكلمات اللينة إنساناً استغرق في الغفلة، وقد يصبح التدرج نفسه نوعاً من التأخير إذا كانت الهاوية قريبة؛ لذلك تأتي «كلا» حادة، قصيرة، نافذة، لا تتيح للنفس أن تزين لنفسها طريقاً ثالثاً بين الحق والباطل. كلا، لن تحمل شيئاً مما جمعت إلا أثر استعمالك له؛ كلا، لن يمنحك تصفيق الناس نجاةً حين تقف وحدك؛ كلا، ليست الزيادة في الممتلكات زيادةً في العمر؛ كلا، لن يتحول الباطل إلى حق لأنه شاع، ولا الغفلة إلى حكمة لأنها صارت أسلوب حياة.

وأشد ما يحتاج إليه الإنسان أحياناً كلمة توقفه، لا كلمة تبرر له؛ حقيقةً تقاومه، لا صوتٌ ينسجم مع شهوته. إن النفس إذا تركت لرغباتها استطاعت أن تضع لكل انحراف اسماً حسناً: تسمي الجشع طموحاً، والتفاخر تعريفاً بالإنجاز، والاحتكار حرصاً، والرياء صناعةً للحضور، والغفلة انشغالاً بالمسؤوليات. فجاء القرآن بكلمة واحدة تزيل مساحيق الأسماء: ﴿كَلَّا﴾. فليست العبرة بما سمى الإنسان به فعله، بل بحقيقته عند الله وأثره في القلب والمصير.

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: الْحَقِيقَةُ الَّتِي لَا تَحْتَاجُ إِلَى إِيمَانِنَا كَيْ تَنَعَ

لم تقل الآية: «لعلكم تعلمون»، ولا: «قد تعلمون»، وإنما قالت: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ إنه علمٌ آتٍ لا محالة، مؤجلٌ في الزمن لكنه مقطوعٌ بوقوعه. يستطيع الإنسان أن يعرض عن الحقيقة، لكنه لا يستطيع أن يلغيها؛ ويستطيع أن يؤخر التفكير في الموت، لكنه لا يؤخر الموت بإعراضه عنه؛ ويستطيع أن ينكر البعث، لكن إنكاره لا يحول دون أن يُبعث. إن حقائق الآخرة لا تستمد وجودها من تصديق البشر، كما أن الشمس لا تحتاج إلى اعتراف الأعمى كي تكون مضيئة.

وهنا تظهر المفارقة المزلزلة: الإنسان الذي كان يتكاثر لأنه يريد اليقين الدنيوي — مالاً يضمن به مستقبله، ومنصباً يحمي به موقعه، وأنصاراً يسند بهم قوته — كان يغفل عن اليقين الأعظم الذي يسير إليه. يطلب ضماناتٍ لأيامٍ قد لا يعيشها، ولا يستعد ليومٍ لا يستطيع الإفلات منه. يحسب الاحتمالات كلها إلا الاحتمال الذي ليس احتمالاً، ويبنى للمستقبل القريب كأنه ثابت، ثم يعامل الآخرة الثابتة كأنها فكرةٌ قابلةٌ للتأجيل.

إن ﴿سَوْفَ﴾ لا تعني أن الحقيقة بعيدةٌ في ذاتها، بل إنها آتيةٌ في الزمن الذي قدره الله، وما يأتي فهو قريب مهما ظنه الإنسان بعيداً. كل يوم يمر لا يدفع الموت إلى الوراء، بل يدفع الإنسان نحوه. وكل صباح جديد ليس مجرد إضافةٍ إلى عمره، بل اقتطاعٌ من الرصيد الباقي. غير أن الغافل يعد الأيام التي عاشها، ولا يرى الأيام التي خسرها من أجله؛ يحتفل بزيادة سنةٍ في رقبه، بينما السنة ذاتها شهادةٌ على أن المسافة إلى النهاية قد نقصت.

ليس كل علم نجاة؛ فقد يعلم الإنسان الحقيقة في وقتٍ لا يستطيع فيه الانتفاع بها. كان المطلوب أن يعرفها في الدنيا معرفةً تحمل على الإيمان والعمل، لكنه إذا أصر على الغفلة فسيعرفها بعد انقضاء زمن الاختيار. يعرفها عند الموت حين يرى بدايات العالم الذي كان يشك فيه، ويعرفها في القبر حين تسقط عنه حجب الحس، ويعرفها يوم البعث حين يقوم الناس لرب العالمين، ويعرفها عند رؤية الجحيم، لكن هذا العلم المتأخر لا يرد يوماً من العمر، ولا يحو ظلماً لم يتب منه، ولا ينشئ عملاً صالحاً انتهت فرصته.

إن قيمة العلم ليست في أن يمر الخبر بالعقل، بل في أن يعيد بناء الحياة. كم من إنسانٍ يعلم أن الدنيا فانية، لكنه ينازع عليها منازعة الخالدين؛ ويعلم أن الرزق من الله، ثم يبيع مبادئه خوفاً من الفقر؛ ويعلم أنه مسؤول عن النعمة، ثم يستعملها في الأذى والاستعلاء؛ ويعلم أن الموت قريب، ثم يؤجل التوبة كأنه يملك وثيقةً بامتداد أجله. هذه معلومات لم تبلغ مرتبة العلم القرآني؛ لأنها لم تنفذ إلى الإرادة، ولم تغير الموقف، ولم تتحول من فكرةٍ محفوظة إلى بصيرةٍ حاكمة.

العلم الذي يريده القرآن ليس زينةً ذهنية، بل قوةً أخلاقية. فإذا علم الإنسان أن الله يراه، ظهر أثر ذلك حين يخلو بما يستطيع أن يعصي به. وإذا علم أن المال أمانة، ظهر علمه حين تتعارض منفعة الربح مع مقتضى الحلال. وإذا علم أنه سيموت، ظهر ذلك في اختياراته وأوليياته. أما أن يردد حقائق الآخرة ثم تبقى حياته محكومةً بموازن التكاثر، فذلك علمٌ على اللسان وغفلةٌ في مركز القرار.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

ولهذا فإن قوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يحمل تهديداً مؤلماً: ستعرفون ما كان يمكن أن تعرفوه الآن، لكنكم ستعرفونه حين لا تعود المعرفة باباً إلى التغيير، بل تصبح جزءاً من الحسرة. وما أقسى أن تنكشف الحقيقة كاملةً للإنسان في اللحظة التي يفقد فيها القدرة على إعادة كتابة سطرٍ واحد من حياته.

لَمَّاذَا تَكَرَّرَ الْإِنْدَارُ؟

قال تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ. لم يكن التكرار حشوًّا؛ فالقرآن منزّه عن الكلمة التي لا تؤدي معنى. إن الإنذار الأول يهز السمع، والثاني يغرس الحقيقة في القلب، وكأن الحجاب الذي صنعه التكاثر كثيفٌ إلى حد أن الضربة الواحدة لا تكفي لتزيقه. الإنسان يسمع الموعظة ثم يعيده عاداته إلى ما كان عليه، ويرى جنازةً فيرق قلبه ساعات، ثم يسترد السوق سلطانه عليه، ويدخل المقبرة فيشعر بضالة الدنيا، ثم يخرج منها فتعود المقاييس القديمة إلى عينه. لذلك يتكرر الزجر؛ لأن الغفلة نفسها تتكرر.

وقد حمل أهل التفسير التكرار على درجاتٍ متعاقبة من انكشاف المصير؛ فقليل: تعلمون عند الموت، ثم تعلمون عند البعث؛ وقليل: تعلمون في القبر، ثم تعلمون في الآخرة؛ وقليل: الأول تأكيدٌ يعقبه تأكيدٌ أشد. وهذه المعاني تلتقي في حقيقةٍ واحدة: أن العلم بالمصير لن يأتي في مشهدٍ عابر، بل ستتابع شواهدهُ حتى تزول كل إمكانيةٍ للإنكار. يبدأ انكشاف ما وراء الدنيا عند نزع الروح، ثم يتأكد في البرزخ، ثم يبلغ كمال ظهوره في البعث والحساب والمعاينة.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

وتحيء ﴿ثُمَّ﴾ لتفيد التراخي والترقي؛ فالأمر الثاني ليس مجرد إعادة صوتية للأول، بل انتقالٌ إلى طورٍ أشدَّ وأعظم. هناك علمٌ عند مفارقة الدنيا، وعلمٌ أوسع عند القيام من القبور؛ وهناك سقوطٌ لأول الأوهام حين يترك الإنسان جسده، وسقوطٌ كاملٌ لها حين يجتمع الخلق ويظهر الحساب. في كل مرحلة تنكشف طبقةٌ جديدة من الحقيقة التي سترها التكاثر.

كأن السورة تقول: ستعلمون حين تخرج الأشياء من أيديكم، ثم ستعلمون حين تخرجون أنتم من قبوركم؛ ستعلمون حين يفترق عنكم المال والأهل، ثم ستعلمون حين تقفون بما عملتم؛ ستعلمون أن ما جمعتموه لم يكن ملكاً باقياً، ثم ستعلمون أن طريقة جمعه وإنفاقه قد بقيت مكتوبة لا يغادرها الحساب.

حِينَ تَنْقَلِبُ الْمَوَازِينُ

العلم الآتي ليس مجرد معرفة بوجود الآخرة، بل اكتشافٌ لانقلاب القيم التي عاش الإنسان وفقها. سيرى أن أناساً كانوا مجهولين في الأرض معروفون في السماء، وأن من ظنهم ضعفاء كانوا أقوىاء بثباتهم، وأن من بدا نجاحهم عظيماً ربما وصلوا مفلسين من الخير، وأن عملاً خفياً لم يلتفت إليه أحد كان أثقل من مشروعاتٍ صاحبها الأضواء. هناك لا تقاس القيمة بما كثر، بل بما صلح؛ ولا بما ظهر، بل بما صدق؛ ولا بما قال الناس عن الإنسان، بل بما يعلمه الله منه.

سوف يعلم المتكاثر أن كل رقم كان يحتاج إلى سؤال: من أين جاء؟ وفيم استعمل؟ وماذا صنع في القلب؟ وسوف يعلم صاحب المنصب أن المنصب لم يكن ارتفاعاً

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

خالصاً، بل اتساعاً في المسؤولية؛ وأن الشهرة لم تكن تصفيقاً مجانياً، بل شهادةً على مقدار التأثير الذي سيحاسب عليه؛ وأن العلم لم يكن لقباً، بل حجةً له أو عليه. كل نعمةٍ كان يراها إضافةً إلى مكانته ستظهر إضافةً إلى سؤاله.

وهنا تنكشف سذاجة النظرة الدنيوية التي تساوي بين كثرة العطاء ورضا الله المطلق عن صاحبه. فقد يكون العطاء ابتلاءً كما يكون المنع ابتلاءً، وقد تكون السعة امتحاناً للشكر والعدل، كما يكون الضيق امتحاناً للصبر والعفة. لا يستطيع الإنسان أن يستدل بمجرد ما في يده على منزلته عند الله؛ فالميزان ليس ما أُعطي، بل ما صنع بما أُعطي. كم من نعمةٍ رفعت صاحبها حين شكر، وكم من نعمةٍ أسقطته حين طغى؛ وكم من حرمانٍ أفسد قلباً بالسخط، وكم من حرمانٍ فتح للروح باب الافتقار واليقين.

حين يأتي العلم الحق، يدرك الإنسان أن ما كان يسميه «حظاً» كان اختباراً، وما كان يسميه «إنجازاً شخصياً خالصاً» قامت خلفه نعمٌ لم يخلقها لنفسه: عقلٌ لم يصنعه، وجسدٌ لم يؤلف أعضائه، وزمنٌ لم يوجد، وفرصٌ لم يملك ترتيبها، وأشخاصٌ أعانوه، وأبوابٌ فتحتها الله له. فإذا تكبر بما أُعطي فقد نسي أصل العطاء، وإذا احتقر غيره فقد جعل النعمة التي كان ينبغي أن تقوده إلى الشكر سبباً في سقوطه.

الْإِنذَارُ الَّذِي يَحْمِلُ فِي بَاطِنِهِ رَحْمَةً

مع شدة قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، فإن مجرد محيٍ الإنذار قبل وقوع العذاب رحمة. لم يترك الله الإنسان ليفاجأ بالحقيقة بعد أن تنتهي فرصته، بل أخبره، وكرر إخباره، وضرب له الأمثال، وأراه الموت فيمن حوله، وأودع في فطرته سؤال المصير.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

إن الإنذار ليس إغلاقاً لباب النجاة، بل فتحٌ له؛ ولو لم يكن في الوقت إمكانٌ للرجوع لما كان للخطاب معنى.

لا يزال الإنسان الذي يسمع الآية في زمن «سوف» قادراً على أن يجعل علمه حاضراً بدل أن ينتظر علم الحسرة. يستطيع أن يتعلم قبل أن يُجبر على التعلم، وأن يرى ببصيرته قبل أن يرى بعينه، وأن يحاسب نفسه قبل أن يُحاسب. يستطيع أن يرد مظلمةً، ويصل رحماً، ويظهر مალأً، ويكسر في قلبه صنم المقارنة، ويعيد النعمة إلى وظيفتها، ويجعل ما بقي من عمره جواباً جديداً عن الأسئلة التي أضاعها فيما مضى.

فالقُرآن حين يقول: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ لا يدعو الإنسان إلى انتظار ذلك العلم، بل إلى الفرار منه إلى علمٍ ينفعه الآن. هناك فرقٌ بين من يعلم بالوحي فيستعد، ومن يعلم بالمعاناة فيندم؛ الأول يحمل الحقيقة طوعاً فتقوده، والثاني تصطدم به الحقيقة قسراً بعد أن يفقد الطريق.

أَنْ تَعْلَمَ قَبْلَ أَنْ تَرَى

الإيمان في جوهره أن تمنح خبر الله من اليقين ما يجعله حاكماً لحياتك قبل أن يتحول الغيب إلى مشاهدة. فالناس جميعاً سيؤمنون بالحقيقة عند انكشافها، لكن موضع الابتلاء هو الإيمان بها وهي غيب. ليست المزية في أن تصدق النار بعد أن تراها، بل في أن يردعك خبر الله عنها وأنت لم تراها، وليست النجاة في أن تدرك فناء المال حين يُنتزع منك، بل في أن تتصرف فيه بوصفه أمانةً وأنت قادرٌ على احتباسه.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

من هنا ينتقل السياق من الإنذار بالعلم الآتي إلى الحديث عن العلم الذي لو تحقق الآن لغير كل شيء:

﴿كَأَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾.

ليست المشكلة إذن أن أخبار الآخرة لم تصل، وإنما أنها لم تتحول إلى علم يقين؛ لم تنزل من اللسان إلى القلب، ومن القلب إلى الإرادة، ومن الإرادة إلى ترتيب الحياة. فالإنسان قد يعرف الجحيم بوصفها كلمة، لكنه لو علمها علم اليقين لما بدد عمره في التكاثر، وقد يعرف الحساب بوصفه عقيدة، لكنه لو استحضره يقيناً لتغيرت علاقته بكل نعمة تمر بين يديه.

وهنا يبدأ الفصل الرابع: ما علم اليقين؟ وكيف تستطيع حقيقة غيبية أن تصبح في القلب أشد حضوراً من الأشياء التي تلمسها اليد؟ وكيف كان اليقين قادراً على أن ينقذ الإنسان من فتنة التكاثر قبل أن يرى الجحيم بعينه؟

الفصل الرابع

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِيْنِ﴾

حِينَ لَا تَبْقَى الْآخِرَةُ فِكْرَةً فِي الْعَقْلِ بَلْ تَصِيرُ قُوَّةً تُعِيدُ تَرْتِيبَ الْحَيَاةِ

للمرة الثالثة ترتفع في السورة كلمة ﴿كَلَّا﴾، كأن القرآن لا يكتفي بأن يوقظ الإنسان من غفلته مرة واحدة؛ لأن التكاثر ليس خاطراً عابراً يزول بالتنبيه، بل نظامٌ كاملٌ من الرغبات والعادات والمقاييس، يحيط بالقلب من جهاتٍ متعددة. لقد قالت السورة أولاً: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، ثم كررت: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وها هي الآن تقول: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِيْنِ﴾؛ وكأن كل «كَلَّا» تنزع طبقةً من الوهم: الأولى تنقض وهم دوام التكاثر، والثانية تؤكد حتمية انكشاف المصير، والثالثة تكشف أصل الداء كله: أن ما يعرفه الإنسان عن الآخرة لم يبلغ في قلبه درجة اليقين الذي يحكم الإرادة.

لم تقل الآية: «لو كانت لديكم معلومات عن الآخرة»؛ فالمعلومات كانت حاضرة، وخبر الموت لم يكن خافياً، والمقابر قائمةٌ حول الناس، وآثار الفناء مرئيةٌ في الأجساد والأزمنة. لكنها قالت: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِيْنِ﴾، فثمة فرقٌ هائل بين أن تعرف الحقيقة بوصفها عبارةً محفوظة، وأن تعرفها معرفةً تملك عليك قلبك وتغيّر نظرك إلى الأشياء. قد يقول الإنسان: الدنيا فانية، ثم يعيش لها كأنها باقية؛ ويقول: الآخرة حق، ثم لا يكون لها أثرٌ في جدول يومه؛ ويقول: الله يراه، ثم يعصي حيث يظن أن أعين الناس لا تراه. ليست المشكلة في نقص العبارة، بل في ضعف سلطانها على النفس.

الْجَوَابُ الَّذِي تَرَكَّهُ السِّيَاقُ لِلْقَلْبِ

جاءت الآية بأسلوب الشرط: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾، ثم لم تصرح بجواب «لو» تصريحاً مباشراً، فكان السياق يفتح أمام القلب مساحةً ليقدر آثار هذا العلم: لو تعلمون علم اليقين لما أهلككم التكاثر، ولما استهلككم أعماركم في مطاردة الصور، ولما اغتررتم بما في أيديكم، ولأعدتكم للموت عدته، ولرأيتكم الدنيا في حجمها الصحيح، ولتحولت النعم من أدوات تفاخرٍ إلى أبواب شكرٍ وإحسان.

إن حذف الجواب يوسّع المعنى؛ لأن آثار اليقين لا تنحصر في فعلٍ واحد. لو استقر اليقين في القلب لتغيرت علاقة الإنسان بالمال والوقت والسلطة والخصومة والحب والخوف، ولأعاد ترتيب أولوياته كلها. فما دام يرى الدنيا وحدها، فمن الطبيعي أن يقاتل على نصيبه منها كأن فقدته هلاكاً نهائياً، أما إذا رأى ببصيرته داراً أخرى، وميزاناً آخر، وحياةً لا موت بعدها، فإن كل شيء في الدنيا يعود إلى موضعه: لا يزهد في الحق، لكنه يزهد في الباطل؛ لا يترك العمل، لكنه يترك عبودية النتيجة؛ لا يهمل إعمار الأرض، لكنه يرفض أن يعمرها على خراب قلبه وآخرته.

اليقين لا ينزع الإنسان من حركة الحياة، بل ينزع من قلبه الذل لها. يعمل، لكن الرزق لا يتحول إلى إله خفي؛ يسعى، لكن النجاح لا يصبح مصدر قيمته الوحيد؛ يخسر، لكنه لا ينهار كأن الوجود كله قد أغلق؛ يربح، لكنه لا يطغى كأن الربح شهادة بعصمته. إنه يتحرك في الدنيا بقوة، لكنه لا يغرس جذور قلبه في أرضٍ يعرف أنه راحلٌ عنها.

علم اليقين هو المعرفة الثابتة التي لا تتردد فيها النفس، والمبنية على الخبر الحق والدليل الصادق، حتى يصبح الغيب حاضراً في الوعي وإن لم يتحول بعد إلى مشاهدةٍ بالبصر. فالإنسان قد يعلم بوجود النار من خبرٍ لا يشك في صدقه، فهذا علم؛ فإذا رآها بعينه انتقل إلى عين اليقين. والآخرة اليوم من عالم الغيب الذي أخبر الله به، والمؤمن لا يحتاج إلى أن يرى الجحيم حتى يصدقها؛ لأن صدق الخبر سبحانه يمنح الخبر يقينه.

وليس اليقين انفعالاً عاطفياً مؤقتاً، ولا حماسةً تشتد في مجلسٍ ثم تزول عند أول امتحان، ولا قسوةً في الرأي تجعل الإنسان يظن كل ما استقر في نفسه وحيّاً، اليقين الشرعي اتصال القلب بخبر الله اتصالاً يثمر صدقاً واستقامةً وخشيةً وطمأنينة. وكلما ازداد اليقين بالله ازداد صاحبه تواضعاً؛ لأنه يدرك قصور نفسه، وافتقاره إلى ربه، وعظم المسؤولية التي تنتظره. أما اليقين المتوهم الذي يثمر كبراً واحتقاراً للخلق وإعجاباً بالنفس، فذلك غالباً يقينٌ بالذات لا يقينٌ بالله.

اليقين ليس كثرة الكلام عن الآخرة، بل حضورها في لحظة القرار. يظهر علم اليقين حين تعرض للإنسان منفعةٌ محرمة فيتركها لأن ما عند الله أصدق وأبقى، وحين يقدر على الظلم فيمنعه استحضار الحساب، وحين يضيق رزقه فلا يبيع ضميره، وحين يتأخر عنه ما يحب فلا يسيء الظن بربه، وحين يتسع ماله فيبذل منه من غير أن يشعر أن الإنفاق يمزق شيئاً من ذاته. هناك لا تعود الآخرة موضوعاً يتحدث عنه، بل تصبح ميزاناً يتخذ به قراراته.

بَيْنَ مَعْرِفَةِ اللِّسَانِ وَيَقِيْنِ الْقَلْبِ

قد يحمل الإنسان عقيدةً صحيحةً في ذهنه، لكن حياته العملية تكشف أن مركز يقينه في مكانٍ آخر. يقول إن الرزق بيد الله، ثم يتعلق قلبه بالناس تعلقاً يذله؛ ويؤمن بأن الكرامة في الطاعة، ثم يطلبها من التصفيق؛ ويعرف أن الأعمار محدودة، ثم يستهلك عمره في خصوماتٍ تافهة؛ ويقرأ أن النعيم مسؤولية، ثم يستعمله كما لو كان حقاً مطلقاً لا سؤال بعده.

وهذه المسافة بين المعلومة والسلوك هي المسافة بين المعرفة المجردة وعلم اليقين. ليست المعلومة بلا قيمة، لكنها البداية لا النهاية؛ فإذا لم تنتقل إلى القلب ظلت كالمصباح في يد مغمض العينين. قد يحفظ الإنسان أوصاف الطريق كلها، لكنه لا يصل ما لم يمش؛ وقد يعرف أن الدواء نافع، لكنه لا يُشفى ما لم يتناوله. كذلك أخبار الآخرة: لا تُنفذ بمجرد ترديدها، وإنما حين تتحول إلى إيمانٍ وعمل.

إن القرآن لا يسأل الإنسان كم مرة سمع عن الموت، بل ماذا فعل به علمه بالموت؛ ولا كم كذباً قرأ عن الزهد، بل أي عبودية للأشياء كسرّها ذلك العلم في قلبه؛ ولا كم موعظةً أبكته، بل أي قرارٍ غيرته دموعه بعد أن جفت. فالموعظة التي لا تنتقل إلى السلوك قد تصبح مع التكرار جزءاً من الألفة؛ يسمع الإنسان الكلمات العظيمة من غير أن تتحرك نفسه، لأن أذنه اعتادت ما لم يستقبله قلبه.

وقد تكون كثرة المعرفة نفسها ميداناً للتكاثر؛ يتباهى الإنسان بما قرأ وحفظ، ويجمع الأقوال كما يجمع غيره الأموال، ويستعمل العلم ليرتفع في أعين الناس لا ليزداد خشيةً

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

لله عندھا تتحول الوسيلة التي خلقت لكسر الغرور إلى غذاء للغرور، ويصبح العلم حجةً أثقل على صاحبه؛ لأنه عرف الطريق ثم طلب بعلمه مكانةً على الطريق، ونسي الغاية التي من أجلها تعلم.

الْيَقِيْنُ الَّذِي يُحْرِّرُ الْإِنْسَانَ مِنَ الْعَدَدِ

إذا استقر علم اليقين في القلب تحرر الإنسان من سطوة العدد؛ لأنه يعلم أن الحق لا يستمد حقايقه من كثرة أتباعه، وأن قيمة العمل لا تتحدد بعدد المصنفين له، وأن الله يعلم السر الذي لا يراه أحد. يستطيع عندئذ أن يفعل الخير في الخفاء، وأن يثبت على المبدأ وإن خالفه الناس، وأن يواصل عملاً نافعاً ولو تأخر الاعتراف به؛ لأنه لم يعد يستمد معنى فعله من استجابة الجمهور، بل من علمه بأن الله يراه.

المتكاثرون يحتاج إلى الناس شهوداً على قيمته، أما صاحب اليقين فيكفيه علم الله. الأول يضطرب إذا غاب اسمه، والثاني يطمئن إذا حضر صدقه؛ الأول يريد أن ينسب الخير إليه، والثاني يريد أن يُقبل الخير منه؛ الأول يفرحه انتشار صورته، والثاني يفرحه بلوغ المنفعة إلى الناس، ولو لم يعرفوا صاحبها.

ولا يعني ذلك أن يرفض الإنسان التقدير أو يتعمد النحول، وإنما ألا يجعل الاعتراف البشري شرطاً لاستمرار عطائه. قد يُشكر فيحمد الله، وقد يُجحد فضله فلا يترك الحق؛ لأن دوافعه أعمق من تقلبات الناس. ومن عرف أن الأعمال ستظهر كاملةً في ميزانٍ لا يظلم، لم يستهلك قلبه في إثبات كل فضلٍ لنفسه، ولم يطلب أجره كله مقدماً من الدنيا.

كَيْفَ يُعِيدُ الْيَقِيْنُ تَرْتِيْبَ الْخَوْفِ؟

الإنسان لا يعيش بلا خوف، لكنه يختار - بوعيه أو غفلته - ما الذي يخافه أكثر. والمتكاثر يخاف النقص، وخفوت الاسم، وتراجع المكانة، وتقدم المنافسين؛ لذلك قد يرتكب من الظلم ما يحفظ به صورته، ومن التنازل ما يضمن به مكسبه. أما علم اليقين فيعيد ترتيب المخاوف: يصبح خوف خسارة المبدأ أشد من خوف خسارة المنصب، وخوف الوقوف بين يدي الله أعظم من خوف كلام الناس، وخوف فساد القلب أخطر من خوف قلة المال.

حينها لا يختفي الخوف الدنيوي تماماً؛ فالإنسان بشرٌ يتألم ويقلق، لكنه لا يعود سيد القرار. قد يخاف الفقر، لكنه لا يسرق؛ ويخاف العزلة، لكنه لا يبيع الحق ليشتري الجماهير؛ ويخاف الأذى، لكنه لا يتحول إلى أداة للظالم. لقد دخل في قلبه يقينٌ أكبر، فصغرت أمامه المخاوف التي كانت تملكه.

واليقين بالآخرة لا يصنع إنساناً ضعيفاً يفر من الحياة، بل يصنع إنساناً يصعب شراؤه؛ لأن ما يطلبه لا تملكه خزائن البشر، وما يخشاه لا يستطيع الناس وحدهم أن ينقذوه منه. يستطيعون أن يمنحوه منصباً، لكنهم لا يمنحونه القبول عند الله؛ ويستطيعون أن يرفعوا اسمه، لكنهم لا يرفعون ميزانه؛ ويستطيعون أن يحيطوه بالمدح، لكنهم لا يجيبون عنه يوم السؤال.

قد يبدو الحديث عن الحساب والحجيم مصدر خوفٍ محض، لكن علم اليقين بالآخرة يحمل طمأنينةً عميقةً للمؤمن؛ لأنه يعني أن العالم ليس متروكاً للعبث، وأن الظلم لا يملك الكلمة الأخيرة، وأن الحقوق التي ضاعت في زحام القوة لم تسقط من علم الله. من عاش مظلوماً ولم ينصفه الناس يعلم أن ثمة يوماً لا يضيع فيه حق، ومن فعل خيراً لم يُرَ يعلم أن الله لا ينساه، ومن قاوم باطلاً ثم مات قبل أن يرى ثمرة مقاومته يعلم أن قيمة الموقف لا تتوقف على النتيجة التي شهدها.

بغير الآخرة تبدو قصص كثيرة ناقصةً ومؤلمةً: ظالمٌ عاش في النعيم ومات من غير عقوبةٍ ظاهرة، ومظلومٌ غادر الدنيا من غير أن يسترد حقه، وصادقٌ دفع ثمن صدقه، وخائنٌ جمع ثمار خيائته. أما علم اليقين فيرى أن صفحة الدنيا ليست الكتاب كله، وأن الموت لا يغلق القضية، بل ينقلها إلى المحكمة التي لا تخفى عليها خافية.

لهذا يحرر اليقين الإنسان من الرغبة المحمومة في أخذ حقه كاملاً بيده، ومن التحول إلى صورةٍ أخرى من الظالم وهو يطلب العدل. يعمل بما يستطيع، ويقاوم الباطل، ويطالب بحقه، لكنه يعلم أن تمام القصاص ليس موكولاً إلى قدرته المحدودة. هناك ربُّ عدلٍ لا ينسى، ويومٌ تظهر فيه السرائر، وميزانٌ لا تميله القوة ولا تخدعه الواجهاة.

عِلْمُ الْيَقِيْنِ لَا يُلْغِي الْأَسْبَابَ

قد يسيء بعض الناس فهم اليقين، فيظنونه استغناءً عن التخطيط والعمل، وكأن من وثق بالله يترك الأسباب. لكن يقين المؤمن لا يناقض سنن الله؛ بل يجعله يأخذ بها من غير أن يعبدها. يزرع وهو يعلم أن الإنبات بيد الله، ويتداوى وهو يعلم أن الشفاء من الله، ويخطط وهو يعلم أن التدبير كله لله. لا يترك السبب، ولا يمنحه مقام الربوبية.

المتكاثريظن أن الأسباب تضمن له كل شيء، فإذا اختل سببُ انهار عالمه؛ أما صاحب اليقين فيبذل غاية وسعه، ثم لا يظن أن جهده ألزم الله بالنتيجة التي يريدها. يعرف أن النجاح قد يكون في تحقق مراده، وقد يكون في حفظ قلبه حين يتأخر المراد، وأن خسارةً تصون دينه أكرم من ربح يهدمه.

وهكذا يظل اليقين بعيداً عن العجز كما يظل بعيداً عن الغرور: لا يقول الإنسان معه «لا حاجة إلى العمل»، ولا يقول «أنا صنعت النتيجة وحدي»، بل يعمل عمل المسؤول، ويفتقر افتقار العبد، ويشكر شكر من يعرف أن التوفيق فضل.

مِنْ عِلْمِ الْيَقِيْنِ إِلَى عَيْنِ الْيَقِيْنِ

تعرض السورة أمامنا مرحلتين من المعرفة: علم اليقين في الدنيا، ثم عين اليقين يوم المعينة. اليوم نخبرنا الله عن الجحيم فنؤمن بها، وغداً يراها الخلق بأعينهم. اليوم يوجد مجال لمن يعرض أو يشك أو ينسى، وغداً لا يبقى للإنكار موضع؛ لأن الغيب يصبح مشهوداً.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

لكن الفرق الحاسم أن علم اليقين اليوم قادرٌ على النجاة، أما عين اليقين غداً فلا تنفع من لم يستعد. ليست فضيلة الإنسان أن يصدق ما تراه عيناه قسراً، بل أن يصدق خبر ربه اختياراً، وأن يبني حياته على ذلك التصديق. الغيب ميدان الامتحان، والمشاهدة بداية الجزاء.

ولو علم الإنسان علم اليقين أن وراء كل كلمةٍ حساباً، لما أطلق لسانه في أعراض الناس؛ ولو علم أن المال الذي يتفاخر به سيُسأل عنه، لحاسب نفسه في مصدره ومصرفه؛ ولو علم أن كل منصبٍ تكليف، لما ازدحم الناس على السلطة من أجل زينتها؛ ولو علم أن العمر نفسه نعيمٌ مسؤولٌ عنه، لما أنفق أيامه في مراقبة حياة الآخرين. لكن الإنسان قد يرفض أن يرى بالبصيرة، وحينئذٍ سيأتي اليوم الذي يرى فيه بالبصر. ويجيء الانتقال القرآني مزلزلاً من العلم الذي كان ينبغي أن يهدي إلى الرؤية التي لا يستطيع أحد أن يدفعها:

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۖ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾.

وفي الفصل الخامس ننتقل من عالم الخبر إلى مشهد المعاينة، حين يسقط الحجاب، وتصير الجحيم التي كانت غائبةً عن الأبصار حاضرةً أمامها، ويعرف الإنسان أن كل لحظة تكاثرٍ كانت تسير به نحو هذا اللقاء الرهيب.

الفصل الخامس

﴿لَتَرْوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ثُمَّ لَتَرْوُنَهَا عَيْنَ الْيَقِيْنِ ﴿

حِينَ يَسْقُطُ حِجَابُ الْغَيْبِ وَتَصِيرُ الْحَقِيْقَةُ الَّتِي أَهْمَلْتُ مَشْهُدًا لَا يُمْكِنُ الْإِعْرَاضُ عَنْهُ
بعد أن قالت السورة: ﴿كَأَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِيْنِ﴾، انتقلت فجأة من حديث العلم إلى
صدمة الرؤية: ﴿لَتَرْوُنَّ الْجَحِيمَ﴾. إن لم تستحضروا الحقيقة اليوم بالبصيرة، فستواجهونها
غداً بالبصر؛ وإن ظل خبر الآخرة على هامش حياتكم، فسيأتي اليوم الذي تحتل فيه
الآخرة المشهد كله، ولا يبقى على الهامش شيء. لقد كان في وسع الإنسان أن يغلق
الكتاب، وأن ينصرف عن الموعظة، وأن يغطي صوت الفطرة بضجيج التكاثر، لكنه
لن يستطيع يومئذٍ أن يغلق عينيه عن الحقيقة التي أحاطت به.

جاء التعبير مؤكداً تأكيداً شديداً: ﴿لَتَرْوُنَّ﴾؛ فاللام تؤكد، والنون الثقيلة تزيد المعنى
توكيداً، وكأن الكلمة القرآنية تسد أمام النفس كل منافذ الهرب: ليست الجحيم وهماً
صنعه الخوف، ولا رمزاً يمكن تفرغه من حقيقته، ولا احتمالاً يتوقف وقوعه على
قبول الإنسان؛ إنها من الغيب الذي أخبر الله به، وستقع رؤيته كما أخبر سبحانه.
يستطيع الإنسان أن يختلف اليوم في الكلام، لكنه حين تنكشف الآخرة لن يكون ثمة
مجال للجدل؛ لأن الرؤية تنهي زمن التصورات، وتضع الخلق أمام الحقيقة نفسها.

الْجَحِيْمُ حَقِيْقَةٌ لَا اسْتِعَارَةَ

إن من أخطر ما تفعله الغفلة أن تحول حقائق الآخرة في وعي الإنسان إلى صور بعيدة
باهتة، لا سلطان لها على السلوك. يسمع الجنة والنار والحساب والميزان، ثم يمر عليها كما

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

يمر على ألفاظٍ ألفها، فلا يرتجف لها قلب، ولا يتغير بها قرار. ومع تكرار السماع من غير حضورٍ قد تصبح الكلمات الكبرى جزءًا من المألوف، كأنها أخبارٌ عن عالم لا صلة له بال لحظة التي يعيشها.

لكن القرآن يعيد إلى اللفظ ثقله: ﴿تَتَوَنَّاهُ﴾. الجحيم ليست مجرد صورةٍ نفسية للندم، ولا اسمًا رمزيًا لعذاب الضمير، وإنما دار عذابٍ حقيقية خلقها الله وأعداها، وسيعاينها الخلق في اليوم الموعود. أما الندم والخوف والحسرة فهي من أحوال من يواجهون المصير، وليست بديلًا عن حقيقته.

والإيمان بحقيقة الجحيم ليس إلغاءً للعقل، بل تصديقٌ لخبر الله الذي خلق ما نرى وما لا نرى. إن الإنسان الذي لا يحيط علمه حتى بأسرار جسده، ولا يرى من الكون إلا ما تسمح به حواسه المحدودة، لا يملك أن يجعل حدود بصره حدودًا للوجود. الغيب ليس ما استحال وجوده، بل ما غاب عن أدوات إدراكنا في هذه المرحلة، وسيأتي اليوم الذي تنكشف فيه منه حقائق كانت موجودةً وإن لم تكن مرئيةً لنا.

الْعَيْنُ الَّتِي كَانَتْ تَرَى كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا مَصِيرَهَا

في الدنيا كانت العين أداةً من أدوات التكاثُر؛ تنظر إلى بيوت الناس، وأموالهم، ومواقعهم، وتلتقط الفروق، وتعيد إشعال الرغبات. ترى ما في يد الآخر، لكنها لا ترى ما وراء يده؛ ترى زينة الشيء، ولا ترى سؤاله؛ ترى لحظة اللذة، ولا ترى حسابها؛ ترى الناس يصعدون في مراتب الدنيا، ولا تعرف إلى أين تنتهي خطواتهم.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

إن التكاثر يبدأ كثيراً من العين: مشهدٌ يوقظ المقارنة، ثم مقارنةٌ تولد الرغبة، ثم رغبةٌ تستولي على القلب، ثم قلبٌ يسخر العمر كله للوصول إلى ما رآه. لم يكن الإنسان محتاجاً إلى كثيرٍ مما طلبه، لكن عينه رأته في يد غيره، فدخل إليه من باب النظر. وهكذا قد تتحول العين من نافذةٍ لمعرفة نعم الله إلى نافذةٍ يدخل منها السخط، ومن وسيلةٍ للتأمل إلى أداةٍ لقياس الذات بحياة الآخرين.

ثم تأتي الآخرة فتجبر العين على رؤية ما غفلت عنه: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾. العين نفسها التي استغرقتها واجهات الدنيا ستقف أمام العاقبة؛ والعين التي كانت تبحث عن المزيد من المتع سترى المصير الذي قادت إليه الغفلة. كأن السورة تعيد تربية النظر: لا تنظر إلى الأشياء منفصلةً عن نهاياتها، ولا إلى اللذة منفصلةً عن مسؤوليتها، ولا إلى المكسب منفصلاً عن طريق تحصيله، ولا إلى النجاح منفصلاً عن أثره في القلب.

البصيرة الإيمانية لا تسأل فقط: ماذا أرى؟ بل: إلى أين يقود ما أرى؟ فقد يبدو الطريق واسعاً جميلاً في بدايته، وتكون نهايته هاوية؛ وقد تبدو الطاعة شاقةً في لحظتها، وتكون نهايتها أمناً ورضواناً. ومن قصر نظره على العاجل عاش عبداً للمشهد الأول، أما من أبصر العاقبة فقد يرفض لذةً قريبةً صيانةً لفرج أبقي.

مِنْ حِجَابِ الْغَيْبِ إِلَى قَهْرِ الْمُشَاهَدَةِ

اليوم يستطيع الإنسان أن يصدق أو يكذب، ويطيع أو يعصي، ويستجيب أو يعرض؛ لأن الحقيقة تُعرض عليه في مجال التكليف، ويطلب منه أن يؤمن بالغيب اعتماداً على

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

خبر الله وآياته. أما حين يرى الجحيم فقد انتهى زمن الامتحان؛ إذ لا معنى لإيمانٍ يأتي بعد أن تصبح الحقيقة محيطةً بالحواس.

ليس الإيمان يومئذٍ اختياراً أخلاقياً، بل اضطرار مشاهدة. والفرق هائل بين من حمل الحقيقة في قلبه حين كانت غيباً، ومن اصطدمت بعينه حين أصبحت مشهداً، الأول آمن فغيّر، والثاني رأى حين لم يعد قادراً على التغيير؛ الأول كان علمه طريقاً، والثاني صار علمه حسرة.

في الدنيا كان يستطيع أن يقول: سأراجع نفسي غداً، وسأتوب حين تستقر ظروفِي، وسأعيد الحقوق عندما تتسع يدي. أما أمام الجحيم فلا يوجد «غداً» للعمل، ولا مرحلةً لاحقةً لإصلاح الماضي. هناك تتوقف اللغة التي خدع بها الإنسان نفسه، وتنتهي المبررات التي كان ينسجها، وتظهر الأعداء في جمها الحقيقي.

كم من معصية صنع لها صاحبها فلسفةً كاملةً كيلا يسميها معصية، وكم من ظلم سماه ضرورةً، وكم من استعلاء سماه حفظاً للكرامة، وكم من إسراف سماه تمتعاً بنعمة الله، وكم من شج سماه تدبيراً. لكن الكلمات لا تغير حقائق الأفعال عند الله، وحين تتكشف الجحيم تسقط الأسماء المزيفة، ويبقى الفعل كما كُتب.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾

تتكرر الرؤية كما تكرر العلم من قبل: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ. وليست الثانية تكراراً خالياً من الزيادة، بل توكيدٌ للرؤية وترقي في وضوحها وقربها؛ فليست رؤية خبرٍ أو خيالٍ أو ظن، وإنما رؤية عينٍ تبلغ معها المعرفة درجةً لا يبقى فيها تردد.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

كان علم اليقين هو أن تعرف الحقيقة من الخبر الصادق، أما عين اليقين فهي أن تقع العين عليها وتعاينها. في الدنيا يقول المؤمن: أخبر الله عن الجحيم فهي حق، وفي الآخرة تصير الحقيقة نفسها أمام البصر. ولا يعني الانتقال أن علم اليقين كان ناقص الصدق، بل يعني أن طريقة الإدراك انتقلت من الخبر إلى المشاهدة.

إن الإنسان يفرّق في وجدانه بين أن يُخبر عن حريقٍ وبين أن يرى النار بعينه. الخبر الصادق يوجب التصديق، لكن الرؤية تحمل من الحضور والرغبة ما لا تحمله المعرفة الغائبة. ولذلك تضع السورة الإنسان أمام المستقبل كأنه واقع الآن: أنت اليوم تقرأ عن الجحيم، لكنك مقبلٌ على يومٍ تراها فيه عين اليقين، فاجعل علم اليوم يعمل فيك قبل أن تأتي رؤية الغد.

إن تكرر ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ لا يترك للإنسان فرصةً ليخفف الأمر في نفسه؛ فالجحيم لا تذكر هنا على سبيل احتمالٍ بعيد، بل على سبيل الموعد الذي يسير إليه الخلق. وكل يوم يمر هو خطوةٌ من عالم علم اليقين إلى عالم عين اليقين، ومن خيرٍ نقرؤه إلى مشهدٍ نراه.

رُؤْيَا الْعَاقِبَةِ قَبْلَ الْخُطْوَةِ

التقوى في أحد معانيها العملية أن يمنح الله الإنسان بصيرةً يرى بها عاقبة الفعل قبل أن يقدم عليه. لا يرى الجحيم بعينه في الدنيا، لكنه يرى بوعده الله الطريق المؤدي إليها، فيمتنع لا لأنه عاجزٌ عن المعصية، بل لأنه أبصر نهايتها. والجاهل بالعاقبة لا يرى إلا اللذة الأولى، أما صاحب اليقين فيرى ما بعدها.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

حين تعرض عليه منفعةٌ من حرام، لا يرى الرقم الذي سيدخل حسابه وحده، بل يرى السؤال الذي سيأتي معه؛ وحين يقدر على ظلم ضعيف، لا يرى لحظة انتصاره فقط، بل يرى وقوفه أمام العدل الذي لا يغفل؛ وحين تدعوه شهوة التكاثر إلى احتقار الناس، يرى كيف يسقط الكبر صاحبه من عين الله وإن ارتفع في عيون البشر.

هذه الرؤية الباطنة ليست خيالاً، بل ثمرة التصديق بالوحي. فالمؤمن لا يقتطع الفعل من مصيره، ولا يبتلع اللذة وينسى ثمنها، ولا ينظر إلى المكسب من جهة الدنيا وحدها. إنه يرى الزمن كاملاً: بداية الفعل، وأثره في القلب، وامتداده في الناس، ثم ظهوره في كتاب الأعمال.

أما الغافل فيعيش محاصراً بال لحظة؛ يريد اللذة الآن ولو خلفت أملاً طويلاً، ويريد الربح القريب ولو حمل خسارة الآخرة، ويريد الانتصار في الخصومة ولو خرج منها بقلبٍ مظلم. إنه يبيع الأبد من أجل دقيقة، لا لأنه اختارها بعد موازنةٍ عاقلة، بل لأنه لا يرى إلا ما اقترب من حواسه.

الْجَحِيْمُ وَعَدَالَةُ الْوُجُوْدِ

إن ذكر الجحيم ليس خطاب تخويفٍ منفصلاً عن العدل، بل إعلانٌ أن الشر ليس طريقاً بلا نهاية، وأن الظلم لا يذوب في النسيان، وأن الإنسان مخلوقٌ مسؤولٌ لا كائنٌ يُترك له أن يفسد ثم ينتهي كل شيء بموته. لولا الحساب لتساوى في النهاية قاتلٌ ومقتول، وظالمٌ ومظلوم، وخائنٌ وأمين، ولصار الوجود مسرحاً ينتهي بإسْدال الستار من غير أن تُرد الحقوق.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

الْجَحِيْمُ مِنْ مَّقْتَضِيَّاتِ عَدْلِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ، كَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ؛ وَلَا يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَعْتَرِضَ عَلَى الْعُقُوبَةِ لِأَنَّهُ لَا يَرَى مِنَ الْفِعْلِ إِلَّا لَحْظَتَهُ الْمَحْدُودَةَ، بَيْنَمَا يَعْلَمُ اللَّهُ حَقِيقَتَهُ وَنَيْتَهُ وَأَثَارَهُ وَامْتِدَادَ فِسَادِهِ. كَلِمَةٌ ظَالِمَةٌ قَدْ تَهْدِمُ نَفْسًا، وَقَرَارٌ جَائِرٌ قَدْ يَشْرُدُ أُمَّةً، وَمَالٌ يُسْرِقُ قَدْ يُحْرِمُ بِهِ ضَعْفَاءٌ مِنْ حَيَاةٍ كَرِيمَةٍ، وَفِكْرَةٌ فَاسِدَةٌ قَدْ تُتَكَاثَرُ أَثَارُهَا بَعْدَ مَوْتِ صَاحِبِهَا. الْإِنْسَانُ يَرَى الْفِعْلَ مُفْرَدًا، وَاللَّهُ يَعْلَمُهُ فِي جَمِيعِ امْتِدَادَاتِهِ.

وَهَذَا يَجْعَلُ الْمُؤْمِنَ أَكْثَرَ حَذَرًا مِنَ الْاسْتِهَانَةِ بِالشَّرِّ، لَكِنَّهُ يَمْنَعُهُ كَذَلِكَ مِنَ الْحُكْمِ الْمَتَعَجَّلِ عَلَى مَصَائِرِ الْأَعْيَانِ؛ فَالْحِسَابُ لِلَّهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْقُلُوبِ وَالْأَعْدَارِ وَالتَّوْبَةِ وَالْخَوَاتِيمِ. نَحْنُ نَعْرِفُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ بِمَا بَيْنَهُ الْوَحْيُ، وَنَحْذَرُ مِنْ أَسْبَابِ الْعَذَابِ، لَكِنَّا لَا نَمْلِكُ خَزَائِنَ الرَّحْمَةِ وَلَا سَجَلَاتِ الْمَصَائِرِ. الْخَوْفُ مِنَ الْجَحِيْمِ يُوْرِثُ تَوَاضُعًا وَشَفَقَةً وَدَعْوَةً إِلَى النِّجَاةِ، لَا شِمَاتَةً بِالْخَلْقِ وَلَا تَعَالِيًّا عَلَيْهِمْ.

بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ

لَا يَرَادُ مِنْ رُؤْيَا الْجَحِيْمِ فِي الْقُرْآنِ أَنْ يَتَحَوَّلَ الْإِنْسَانُ إِلَى الْيَأْسِ؛ فَالَّذِي يَحْذَرُهُ اللَّهُ الْيَوْمَ مَا يَزَالُ فِي دَارِ التَّوْبَةِ. لَوْ كَانَ الْمَقْصُودُ إِغْلَاقُ الطَّرِيقِ لَمَّا جَاءَ التَّحْذِيرُ قَبْلَ الْمَوْتِ. كُلُّ آيَةٍ تَصِفُ النَّارَ تَقُولُ لِلْحَيِّ ضَمْنًا: لَا تَزَالُ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَبْتَعِدَ؛ وَكُلُّ زَجْرٍ يَفْتَحُ وَرَاءَهُ بَابًا لِلْإِنْبَاءِ؛ وَكُلُّ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ الْحِسَابِ يَمْنَحُ الْإِنْسَانَ فُرْصَةً كَيْ يَحَاسِبَ نَفْسَهُ الْآنَ.

الْخَوْفُ الصَّادِقُ لَيْسَ الَّذِي يَشُلُّ الْإِرَادَةَ، بَلِ الَّذِي يَرُدُّهَا عَنْ الْهَلَاكِ. أَمَّا الْخَوْفُ الَّذِي يَقُودُ إِلَى الْقَنُوطِ وَتَرْكِ الْعَمَلِ فَلَيْسَ هُوَ الثَّمَرَةُ الَّتِي يَرِيدُهَا الْقُرْآنُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ الَّذِي حَذَّرَ مِنَ النَّارِ هُوَ الَّذِي دَعَا إِلَى التَّوْبَةِ وَوَعَدَ بِالْمَغْفَرَةِ. الْمُؤْمِنُ يَسِيرُ إِلَى اللَّهِ بَيْنَ خَوْفٍ

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

يَمْنَعُهُ مِنَ الْاِغْتِرَارِ وَرَجَاءٍ يَمْنَعُهُ مِنَ الْيَأْسِ. إِذَا عَمِلَ صَالِحًا لَمْ يَأْمَنْ مَكْرَ اللَّهِ وَلَمْ يَعِجِبْ
بِنَفْسِهِ، وَإِذَا أَخْطَأَ لَمْ يَقُلْ إِنَّ الطَّرِيقَ أَغْلَقَ، بَلْ عَادَ مُسْتَغْفِرًا.

والتَّكْوِيْنُ يَفْسِدُ هَذَيْنِ الْجَنَاحَيْنِ مَعًا: يَمْنَحُ صَاحِبَهُ أَمْنًا كَاذِبًا حِينَ يَرَى مَا عِنْدَهُ فَيُظَنُّ أَنَّهُ
بِخَيْرٍ، ثُمَّ إِذَا انْهَارَتْ أَسْبَابُهُ دَفَعَهُ إِلَى الْيَأْسِ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ سِنْدًا وَرَاءَهَا. أَمَّا الْيَقِيْنُ
فَيَجْعَلُهُ خَائِفًا وَهُوَ فِي الْقُوَّةِ مِنْ سُوءِ اسْتِعْمَالِهَا، رَاجِيًا وَهُوَ فِي الضَّعْفِ رَحْمَةً ربه.

مَاذَا يَبْقَى مِنَ التَّكْوِيْنِ أَمَامَ الْجَحِيْمِ؟

عِنْدَ رُؤْيَا الْجَحِيْمِ تَكْمَشُ كُلُّ الْأَشْيَاءِ الَّتِي مَلَأَتْ الْوَعْيَ. مَاذَا يَبْقَى مِنْ جِدَالٍ طَوِيلٍ
حَوْلَ مَنْ كَانَ أَكْثَرَ مَلَأًا؟ وَأَيُّ مَعْنَى يَحْتَفِظُ بِهِ لِقَبِّ تَنَافُسِ النَّاسِ عَلَيْهِ؟ وَمَا قِيَمَةُ
اِنْتِصَارٍ صَغِيرٍ فِي خِصْمَةٍ أُورِثَتْ ظِلْمًا وَعَدْوَانًا؟ هُنَاكَ يَرَى الْإِنْسَانُ أَنَّ مَا كَانَ ضَمًّا
فِي عَيْنِهِ كَانَ صَغِيرًا فِي مِيزَانِ الْمَصِيرِ، وَأَنَّ مَا اسْتَهَانَ بِهِ — كَلِمَةُ الصَّدَقِ، وَحَقُّ
الضَّعِيفِ، وَسَلَامَةُ الْقَلْبِ، وَاللَّقْمَةُ الْحَلَالِ — كَانَ هُوَ الْعَظِيمُ حَقًّا.

لَقَدْ كَانَ التَّكْوِيْنُ يَطْلُبُ مِنَ الْإِنْسَانِ أَنْ يَنْظُرَ أَفْقِيًّا: مِنْ فَوْقِهِ؟ وَمِنْ تَحْتِهِ؟ وَمِنْ سَبْقِهِ؟
بَعْدًا؟ السُّورَةُ لِتَجْعَلَ نَظْرَهُ أُخْرَوِيًّا: إِلَى أَيْنَ يَسِيرُ؟ وَمَاذَا قَدَمَ؟ وَمَا الَّذِي يَنْتَظِرُهُ؟
الْمُقَارَنَةُ الْأَهَمُّ لَيْسَتْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ فِي مَقْدَارِ الدُّنْيَا، بَلْ بَيْنَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ وَمَا أَمْرُكَ
اللَّهُ أَنْ تَكُونَهُ، وَالسَّبَاقُ الْحَقِيقِيُّ لَيْسَ إِلَى أَكْثَرِ الْأَشْيَاءِ، بَلْ إِلَى مَغْفِرَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ.

وَحِينَ تَسْتَقِرُّ هَذِهِ الرُّؤْيَا، لَا يَعُودُ ذِكْرُ الْجَحِيْمِ خَبْرًا مُظْلِمًا يَعِزِلُ الْإِنْسَانَ عَنِ الْحَيَاةِ، بَلْ
ضَوْءًا حَادًّا يَكْشِفُ لَهُ خَطُورَةَ الطَّرِيقِ. إِنَّهُ يَجْعَلُ الْحَلَالَ أَثْمَنَ، وَالْعَدْلَ أَوْجَبَ،
وَالرَّحْمَةَ أَعْمَقَ، وَالْوَقْتَ أَعْلَى. وَمَنْ خَافَ النَّارَ لَمْ يَكْتَفِ بِأَنْ يَطْلُبَ النِّجَاةَ لِنَفْسِهِ، بَلْ

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

سعى ألا يكون سبباً في هلاك غيره، وألا يستعمل نعمةً من نعم الله في إفساد قلبٍ أو ظلم حياة.

غير أن السورة لا تنتهي عند رؤية الجحيم؛ فبعد انكشاف المصير يأتي الحساب على الطريق الذي أوصل إليه، وبعد الحديث عن النار تعود الآيات إلى الشيء الذي بدأ منه التكاثر: النعم. فما كان الإنسان يراه مادةً للذة والتفاخر سيظهر بوصفه أمانةً ذات سؤال.

وتأتي الآية الأخيرة جامعةً، حاسمةً، تضع الحياة كلها تحت نور المسؤولية:

﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾.

وهناك يبدأ الفصل السادس: ما النعم الذي سنسأل عنه؟ وكيف يتحول الماء والصحة والأمن والوقت والعقل والمحبة من أشياء مألوفةٍ نمر بها إلى أماناتٍ تُكتب في سجل العمر؟ وكيف يكون الشكر تحريراً للنعمة من فتنة التكاثر؟

حِينَ تَحْوُلُ كُلُّ نِعْمَةٍ مِنْ مَادَّةٍ لِلِاسْتِمَاعِ إِلَى أَمَانَةٍ تَقِفُ بَيْنَ يَدَيِ الْحِسَابِ

تنتهي سورة التكاثر بسؤال، ولكنها لا تذكر جواب الإنسان عنه؛ لأن الجواب لم يكتب بعد كاملاً، ولأن كل واحد منا يكتبه الآن بطريقة حياته. كيف تلقينا النعم؟ ومن أين اكتسبناها؟ وفيم استعملناها؟ وهل قادنا إلى معرفة المنعم وشكره، أم جعلناه مادة للغفلة والتفاخر؟ إن الآية لا تسأل عن فكرة بعيدة، بل عن تفاصيل تمر بنا كل يوم حتى نفقد — من شدة اعتيادنا لها — قدرتها على إثارة الدهشة: شربة الماء، ولقمة الطعام، وسلامة الجسد، وأمن الطريق، وهدوء البيت، وصوت الحبيب، وقدرة العين على القراءة، واللسان على الكلام، والعقل على الفهم، والقلب على المحبة، والوقت الذي نتحرك فيه، والفرص التي تفتح، والأبواب التي تغلق حمايةً لنا وإن لم ندر أنها.

جاءت الآية مؤكدةً كما جاء مشهد الجحيم مؤكداً: ﴿لَنَسْأَلَنَّ﴾؛ فاللام والنون الثقيلة تحلان معنى الحتم الذي لا يترك للغفلة منفذاً. ليست النعمة منحةً سائبةً خارج المسؤولية، وليس الإنسان مالاً مطلقاً يفعل بما أوتي ما يشاء من غير مراجعة؛ إنه مستخلفٌ فيما بين يديه، منتفعٌ به إلى أجل، ثم واقفٌ أمام الله ليسأله عن هذه العطايا. والسؤال ليس احتمالاً أخلاقياً، بل موعدٌ إلهي: كما سترون الجحيم عين اليقين، ستسألون عن النعيم يقيناً.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

وتجيء ﴿ثُمَّ﴾ لتضع السؤال بعد مشهد الرؤية الرهيب؛ فكأن الإنسان يرى أولاً حقيقة المصير، ثم يُفتح أمامه سجل النعم التي كانت بين يديه في الدنيا. هناك يدرك أن حياته لم تكن فقيرةً كما كان يتوهم، وأن أشياء كثيرةً شكّا غيابها حجت عنه رؤية ما كان حاضراً، وأن النعم التي مر بها من غير شكر لم تكن تفاصيل هامشية، بل موادَّ كاملةً في الامتحان. لقد كان يظن أن الاختبار في المصائب وحدها، فإذا النعم نفسه اختبار، وكان يخاف أن يُسأل عما حُرّم، فإذا به يُسأل عما أُعطي.

النَّعِيمُ الَّذِي لَا نَرَاهُ لِأَنَّهُ دَائِمٌ

من مفارقات النفس الإنسانية أنها تلتفت إلى النعمة غالباً حين تتعطل. لا يشعر الإنسان بنقص قلبه ما دام منتظماً، فإذا اضطرب نبض واحد امتلأ وعيه به؛ ولا يتأمل حرية الحركة حتى يقيدته الألم، ولا يعرف قيمة النوم حتى يفر منه، ولا يدرك نعمة الأمان حتى يقترب الخوف، ولا يسمع جمال الأصوات المألوفة حتى يغيب أصحابها. كأن الاستمرار يسحب من النعمة بريقها، مع أن استمرارها هو وجه آخر من وجوه عظمها.

نستيقظ فنفتح أعيننا من غير أن نصدر أمراً لها بالإبصار، ونتنفس من غير أن ندير أجهزة الجسد، ونسير محمولين على نظامٍ معجزٍ لا نعلم أكثر عملياته، ثم نظن أن النعم لا يبدأ إلا عند الأشياء الاستثنائية. والحقيقة أن أعظم النعم لا تدخل حياتنا بصوتٍ مرتفع، إنها تعمل في صمت، وتحملنا من غير أن نطلب انتباهنا، حتى نخطئ فنحسب المجانية عدماً، والاستمرار حقاً مكتسباً، والمألوف شيئاً لا يستحق الحمد.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

ولهذا جاءت الكلمة عامة: ﴿عَنِ النَّعِيمِ﴾؛ لم تحصر السؤال في القصور والأموال والمراكب، بل فتحت أمام الإنسان دائرة النعم كلها. وفي أقوال المفسرين أمثلة متعددة للنعم: الصحة، والأمن، والطعام، والشراب، والراحة، وسائر ما يتنعم به الإنسان؛ وهي معانٍ لا تتعارض، بل تكشف اتساع اللفظة. وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ ذكر أصحابه بالسؤال عن نعمٍ بدا في ظاهره يسيراً: طعامٍ سد الجوع، وماءٍ أذهب العطش، وظلٍّ آوى الأجساد. فالنعم لا يبدأ من الرفاه الفاخر؛ قد يكون كسرة خبزٍ تأتي إلى الجائع، أو شربة ماءٍ باردةٍ يمجدها العطشان، أو باباً يغلقه الإنسان على أهله آمنين.

إن الفقير ليس خالياً من كل نعمة، والغني ليس مستأثراً بالنعم؛ لكل إنسان نصيبه المختلف من العطايا والابتلاءات، ولكلٍّ سؤاله الموافق لما أُعطي. ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ولا يسأل عبداً عن قدرةٍ لم يمنحه إياها. لكن أحداً لا يخرج من الحياة صفرًا من النعم؛ فحتى من ضاقت عليه الدنيا قد أُعطي أشياء لا يملكها غيره، وقد يكون في قلبه من الإيمان أو الصبر أو المحبة ما هو أعظم من أموالٍ واسعة.

لَيْسَ السُّؤَالُ عَنِ النَّعِيمِ إِدَانَةً لَهُ

لا تريد الآية أن تزرع في النفس شعوراً بأن كل لذة حلال موضع اهتمام، أو أن جمال الدنيا شيءٌ ينبغي أن ينجل المؤمن من الاستمتاع به. الله هو الذي خلق الطيبات وأباحها، وجعل في الطعام مذاقاً، وفي الماء عذوبةً، وفي البيوت سكينَةً، وفي العلاقات مودةً، وفي الكون جمالاً. ليست المشكلة أن يتنعم الإنسان، وإنما أن ينسى المنعم، أو

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

يكتسب النعمة من حرام، أو يستعملها في معصية، أو يمنع حق الله وحق الخلق فيها، أو يحولها إلى مادة للاستعلاء.

السؤال عن النعيم لا يلغي مشروعية الفرح، بل يطهره من الغفلة؛ فلا يكون الفرح نهياً للذة، بل استقبالاً للعتاء بمجد واعتدال. المؤمن يأكل ويشرب ويلبس ويسكن ويستريح، لكنه يعرف أن الحلال عبادة إذا صحت النية وقام الشكر، وأن الجسد الذي يريحه اليوم ينبغي أن يستعين بقوته غداً على واجب. لا يرى بين العبادة والنعمة خصومة؛ بل يجعل النعمة نفسها طريقاً إلى العبادة.

إن الزهد ليس تعذيب النفس ولا تحريم الطيبات، وإنما ألا يتحول التمتع إلى سيادة للشهوة على القلب، وألا يجزع الإنسان إذا فاتته بعض ما يحب، وألا يبيع آخرته لتحصيل متعة عابرة. قد يلبس الجميل من غير كبر، ويسكن الواسع من غير إسراف، ويملك المال من غير عبودية؛ وقد يعيش آخر في أبسط حال وتملكه شهوة ما لم يعط. فالقضية ليست في مظهر الحرمان أو الوفرة، بل في حرية القلب وصدق الشكر.

أَرْبَعَةُ أَسْئَلَةٍ فِي كُلِّ نِعْمَةٍ

كأن السؤال عن النعيم يتفرع في ضمير المؤمن إلى أربعة أسئلة كبرى:

أولها: من أين جاءت النعمة؟ هل اكتسبها من طريق أحله الله، أم بنى راحته على تعب المظلومين، وأغنى نفسه بإفكار غيره، وأطعم أهله من مالٍ اختلط بالحرام؟ ليست كل سعة نعمة في العاقبة؛ فقد يكون المال الواسع باب شقاء إذا دخل من ظلم أو خيانة.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

إن حسن استعمال المال لا يحو فساد مصدره، كما أن الإنفاق منه في بعض الخير لا يطهر حقاً مسروقاً حتى يُرد إلى صاحبه.

والسؤال الثاني: إلى من نُسبت النعمة في القلب؟ هل رأى الإنسان فيها فضل الله، أم نسبها إلى عبقريته وحدها، كأنه خلق عقله، وصنع ظروفه، ورتب الفرص، وحفظ جسده من كل عارض؟ لا ينكر الشكر جهد الإنسان؛ فقد أمره الله بالسعي، لكنه يمنعه من تأليه جهده. أنت عملت، لكن من وهبك القدرة على العمل؟ وخططت، لكن من أبقى لك العقل والوقت؟ وطرقت الباب، لكن من أذن له أن يُفتح؟ إن رؤية فضل الله لا تلغي مسؤوليتك، بل تحررك من الغرور.

والسؤال الثالث: فمِم استُعملت النعمة؟ فالعين نعمة، لكن لها شكراً حين تنظر إلى الحق وتغض عن الحرام؛ واللسان نعمة، وشكره أن يصدق ويذكر ويصلح، لا أن يغتاب ويهدم؛ والعقل نعمة، وشكره أن يُطلب به الهدى ولا يتحول إلى أداة لتبرير الهوى؛ والسلطة نعمة، وشكرها إقامة العدل وحماية الضعيف؛ والمال نعمة، وشكره الكسب الحلال والإنفاق في الواجب والإحسان؛ والوقت نعمة، وشكره ألا يُذبح كله على مذبح العبث.

والسؤال الرابع: هل أدي حق الآخرين في النعمة؟ فبعض العطايا لا تُمنح للإنسان لينغلق عليها، بل ليصير باباً يمر منها الخير إلى الخلق. من أعطي علماً صار للناس في علمه حق، ومن أوتي قدرةً فله أن ينصر بها عاجزاً، ومن رُزق مالاً ففيه حقوق واجبة

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

وأبواب إحسان، ومن مُنح كلمة مسموعةً فعليه ألا يجعلها خادمةً للباطل. النعمة التي لا تعبر من صاحبها إلى أحد قد تتقلب جداراً يعزله عن الناس وعن معنى العطاء.

الشُّكْرُ: أَنْ تَبْقَى النِّعْمَةُ مُتَّصِلَةً بِالنُّعْمِ

الشكر ليس لفظ «الحمد لله» وحده، وإن كان الحمد من أعظم مظاهره؛ بل هو معرفة القلب بالنعمة، وثناء اللسان عليه، واستعمال الجوارح للنعمة في مرضاته. وقد يقول الإنسان بلسانه: الحمد لله، بينما طريقته في استخدام النعمة تناقض الحمد؛ فيحمد على المال ثم يمنع حقه، ويحمد على الصحة ثم يسخرها في معصية، ويحمد على العلم ثم يتكبر به، ويحمد على الأبناء ثم يهمل تربيتهم.

الحمد الصادق يعيد النعمة إلى مصدرها، ويمنعها من صناعة الكبير؛ لأن الإنسان كلما رأى فضل الله فيها شعر بالافتقار لا بالاستعلاء. لا يحتقر من حُرْم؛ لأنه يعلم أنه لم ينتزع النعمة من خزائن الكون بقوته، بل آتاه الله إياها اختباراً، وكان قادراً سبحانه أن يبذل المواقع. ومن شكر حقاً رِق قلبه لمن فقد ما لديه، وأدرك أن النعمة التي لا تجعله أرحم قد دخلها من بخوده بقدر ما دخلها.

إن الشاكر لا يقول للفقير: أنا أفضل منك لأنني أملك أكثر، بل يقول في سره: لعل ما عندي امتحانٌ أثقل، ولعل صبرك عند الله أرفع. ولا ينظر الصحيح إلى المريض من شرفة العافية، بل يعرف أن الجسد أمانةٌ قابلةٌ للتحول في لحظة. الشكر يكسو النعمة تواضعاً، أما التكاثر فيكسوها كبراً؛ الشكر يجعل صاحبها خادماً للخير، والتكاثر يجعله مستخدماً للخير في خدمة صورته.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

نِعْمَةُ الْوَقْتِ: رَأْسُ الْمَالِ الَّذِي لَا يَعُودُ

إذا كانت السورة قد بدأت بالإلهاء وانتهت بالسؤال عن النعيم، فإن العمر يقع في قلب المعنى كله؛ فالإلهاء استهلاكٌ للزمن، والزمن من أعظم النعيم. المال إذا ضاع قد يعود، والصحة إذا اعتلت قد تُسترد، والعلاقة إذا انكسرت قد تُرمم، أما الدقيقة التي مضت فلا تعود إلى خزائن الإنسان.

ومع ذلك يتعامل كثيرون مع الوقت كأنه النعمة الوحيدة التي لا ثمن لها؛ يقتلون الساعات لأنهم لم يدفعوا مالا لشرائها، وينتظرون الفراغ كأنه عبء، مع أن الفراغ مساحةٌ من العمر يمكن أن تتحول إلى معرفةٍ أو عبادةٍ أو صلةٍ أو إبداع. ومن أعجب ما يفعله التكاثر أنه يجعل الإنسان حريصاً على أمواله، مسرفاً في أيامه؛ يغضب لخسارة مبلغ، ولا يغضب لسنواتٍ ذهبت في المقارنة والحسد والخصومات.

والسؤال عن العمر ليس دعوةً إلى تحويل الحياة كلها إلى توترٍ وإنتاجٍ لا يتوقف؛ فالراحة نفسها حاجةٌ ونعمة، والنوم حقٌّ للجسد، والأنس المباح غذاءٌ للنفس. لكن الفرق بين الراحة والإلهاء أن الراحة تعيد الإنسان إلى رسالته أقوى وأصفى، أما الإلهاء فيبدد طاقته ويتركه أكثر فراغاً. ليست قيمة الوقت في كثرة الحركة، بل في صدق الوجهة؛ فقد تكون ساعة تأملٍ أو جلوسٍ مع الأهل أثمن من يومٍ مزدحمٍ بأعمالٍ لا معنى لها.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

نِعْمَةُ الصِّحَّةِ وَالْقُدْرَةِ

الصحة ليست غياب الألم فقط، بل قدرةٌ على الفعل، وكل قدرةٌ سؤال. من استطاع أن يمشي إلى خيرٍ ثم لم يفعل، أو أن يدفع ظلمًا فسكت، أو أن يتعلم فاختر الجهل، لم يكن جسده خارج سبيل المسؤولية. العضلات والأعصاب والحواس ليست ملكًا مهملاً؛ إنها أدوات أودعها الله الإنسان لي عمر بها حياته في الحق.

غير أن الإنسان قد يستنفد صحته في بناء ما لا يتمكن من الاستمتاع به، ثم ينفق ما جمع لاسترداد بعض ما فقدته. وهذه إحدى صور التكاثر المأساوية: أن يضحي بالأصل لحماية الفرع، والجسد الذي يحمل الحياة من أجل الأشياء التي كان ينبغي أن تخدم الحياة. ولا يعني ذلك ترك العمل الشاق؛ فقد تكون المشقة شرفاً في طلب الحلال وخدمة الأهل والناس، وإنما الخطأ أن يصبح السعي بلا ميزان، وأن تُهمل حقوق الجسد والروح حتى ينهارا تحت مشروع المزيد.

وشكر الصحة لا يكون بالخوف المرضي من فقدانها، بل بصيانتها واستعمالها في الخير من غير غرور. فالصحيح ليس أفضل عند الله لمجرد صحته، والمرضى ليس أقل قيمةً بسبب ضعفه؛ لكن كليهما ممتحن بما آتاه الله: هذا في استعمال القوة، وذلك في الصبر على الألم.

نِعْمَةُ الْعَقْلِ وَالْكَلِمَةِ

من النعم أن يستطيع الإنسان أن يفهم، ويميّز، ويقرأ، ويكتب، ويستخرج من التجربة معنى. والعقل لا يشكر بمجرد جمع المعلومات، بل بإخلاص البحث عن الحق

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

والاستجابة له حين يظهر. قد يكون الذكاء نعمةً هائلةً، ثم يتحول إلى فتنةٍ إذا استعمله صاحبه في صناعة الشبهات، أو تزيين الباطل، أو خداع البسطاء، أو بناء تفوقٍ متكبرٍ على الناس.

وكذلك الكلمة نعمة؛ يستطيع بها الإنسان أن يواسي قلباً، ويكشف ظلماً، ويعلم جاهلاً، ويرد غائباً إلى الرجاء، لكنه يستطيع بالكلمة نفسها أن يهدم سمعةً، ويشعل فتنةً، ويزيّف وعياً، ويمنح الباطل شرعيةً لا يستحقها. وكلما اتسع انتشار الكلمة اتسعت مسؤوليتها؛ فالتأثير ليس امتيازاً خالصاً، بل سؤالٌ مضاعف.

قد يفرح الكاتب بكثرة قرائه، وانخطيب بكثرة سامعيه، وصاحب الرأي باتساع نفوذه، لكن سورة التكاثر تسأله عن حقيقة ما وراء العدد: ماذا وضعت في قلوب هؤلاء؟ هل قريتهم من الحق أم من صورتك؟ هل حررت عقولهم أم صنعت منهم جمهوراً حول اسمك؟ ليست كثرة الوصول دليلاً على صلاح الرسالة، بل زيادةً في مساحة الأمانة.

نِعْمَةُ الْأَمْنِ وَالْبَيْتِ

من أعظم النعيم أن ينام الإنسان وهو لا يخشى اقتحاماً، وأن يعود إلى بيتٍ يعرف أنه مأواه، وأن يسمع أصوات أهله من غير أن يخاف فقدهم في اللحظة التالية. لكن الأمن، لطول ملازمته أحياناً، يصبح شفافاً لا يُرى؛ فلا يعرف الناس قيمته حتى تسلبهم الحرب هدوء الليل، ويصير الطريق مخاطرةً، والبيت موضع خوف.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

وشكر الأمان ليس الاستغراق في الراحة ونسيان من فقدوه، بل حفظ أسباب العدل التي يقوم عليها، وعدم استعمال القوة في ترويع الضعفاء. فالأمان الذي يُبنى لفئةٍ على خوف فئةٍ أخرى ليس أماناً كاملاً، والنعمة التي تُحْمَى بالظلم تحمل في داخلها بذور زوالها. حين يفهم الإنسان الأمان أمانةً، لا يكتفي بأن يكون بيته آمناً، بل يسأل: هل أمان الناس من يدي ولساني ونفوذِي؟

والبيت نفسه نعمةٌ أكبر من الجدران؛ إنه سترٌ وسكينةٌ وعلاقة. قد يتنافس الناس في مساحات البيوت وزخارفها، بينما تفقد البيوت وظيفتها الأعمق: أن تكون موضع رحمة. ما قيمة قصرٍ واسعٍ تضيق فيه الصدور، وما قيمة أثاثٍ فاخرٍ لا يجد الجالسون حوله كلمة محبة؟ التكاثر يحسب عدد الغرف، والشكر يسأل عن مقدار السكينة التي عمرتها.

نِعْمَةُ الْإِيْمَانِ وَالْهُدَايَةِ

وفوق نعم الجسد والمال والأمان تأتي نعمة الهداية؛ أن يعرف الإنسان ربه، ويفهم غايته، ويملك نوراً يفسر له الحياة والموت، ولا يعيش يتيماً المعنى في كونٍ واسع. إنها نعمة لا يحيط بمقدارها إلا من أدرك ظلمة الحيرة، وأن يستطيع الإنسان أن يرفع يديه إلى الله، ويقرأ كلامه، ويستغفر بعد خطئه، ويعرف أن باب العودة مفتوح.

لكن هذه النعمة كذلك مسؤولية؛ فن عرف الحق لم يعد كمن لم يعرفه، ومن حمل القرآن صار مطالباً أن يظهر أثره في خلقه وعدله ورحمته. لا يكون شكر الوحي بكثرة تلاوته وحدها، مع جلال التلاوة، بل بأن يتحول إلى ميزانٍ للحياة. وقد يدخل التكاثر

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

حتى هنا؛ فيتكاثر الناس بالمحفوظات والمعلومات والمظاهر، بينما لا يزدادون تواضعاً ولا عدلاً.

ليس المقصود من العلم بالقرآن أن يجعل الإنسان نفسه فوق الناس، بل أن يجعله أشد شعوراً بمسؤوليته تجاههم. وكلما عرف من الحق أكثر وجب أن يكون أرحم بالجاهل، وأبعد عن العجب، وأسرع إلى محاسبة نفسه؛ لأن النور الذي يهديه يكشف عيوبه قبل أن يكشف عيوب الآخرين.

النِّعْمَةُ الَّتِي تَتَحَوَّلُ إِلَى حُجَّةٍ

كل نعمةٍ تحمل احتمالين: أن تكون زاداً لصاحبها أو حجةً عليه. المال نفسه قد يفتح باب الجنة حين يُكتسب من حلال ويُنفق في الحق، وقد يكون وقود حسرةٍ حين يُجمع بالظلم ويُمنع منه الواجب. والعلم قد يرفع صاحبه إذا أورثه خشيةً ونفعاً، وقد يضعه إذا صار وسيلةً للرياء. والسلطة قد تكون مقام عدلٍ يحفظ الحقوق، وقد تكون آلةً للتسلط. والجمال قد يورث شكراً وعفة، وقد يتحول إلى كبرٍ وفتنة. ليست النعمة ذات مصيرٍ واحد؛ الذي يحدد عاقبتها هو موقف الإنسان منها.

والتكاثر ينظر إلى كل زيادةٍ بوصفها ربحاً، أما الإيمان فيراها زيادةً في الإمكان وزيادةً في السؤال معاً. من اتسعت قدرته اتسع ما يستطيع أن يقدمه، لكنه إذا لم يقدم اتسعت مساحة تقصيره. لذلك كان الصالحون يخافون من النعمة لا لأنها شر، بل لعظم حقها، ويفرحون بها لا لأنها رفعتهم فوق الناس، بل لأنها فتحت لهم باباً جديداً إلى الشكر.

مِنَ التَّكْوِيْنِ إِلَى الشُّكْرِ

بدأت السورة بإنسانٍ ينظر إلى النعمة من جهة عددها: هل عندي أكثر؟ وانتفت بإنسانٍ يُسأل عن معناها: ماذا صنعت بما عندك؟ وهذا هو التحول الذي تريد السورة إنجازه في القلب. التكاثر يجعل النعمة وقوداً للمقارنة، والشكر يجعلها جسراً إلى الله؛ التكاثر يطلب الزيادة ولو فسدت الروح، والشكر يحسن استعمال الموجود؛ التكاثر يفتح العين على ما في أيدي الناس، والشكر يفتحها على ما أفاضه الله.

الشاكر لا يعني أنه لا يطلب الزيادة، لكنه يطلبها لرسالةٍ لا لتعويضٍ نقصٍ موهوم في إنسانيته. يقول: رب زدني علماً لأنفع، ووسع رزقي لأغني وأعطي، وقوّني لأحمل الحق، واجعل لي قبولاً يبلغ به الخير. أما المتكاثر فيطلب المزيد كي يشعر بأنه أكبر، فإذا حصل عليه احتاج إلى المزيد مرةً أخرى؛ لأن الشيء لا يستطيع أن يمنحه القيمة التي ينبغي أن يستمدّها من عبوديته لله.

الشكر يخلق الكفاية في القلب قبل أن تكتمل الأشياء في اليد؛ فيرى الإنسان ما عنده، ويحمد عليه، ويعمل على تحسين حياته من غير أن يحتقر حاضرها. أما التكاثر فيؤجل الرضا إلى يومٍ لا يأتي، ويجعل الحياة مرحلةً ناقصةً دائماً؛ فكل ما نحقق يفقد بريقه بمجرد أن يظهر في الأفق ما هو أكبر منه.

السُّؤَالُ الْأَخِيرُ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ الْجَوَابُ الْيَوْمَ

تنتهي السورة عند قوله تعالى: ﴿عَنِ النَّعِيمِ﴾، كأنها تترك الكلمة مفتوحةً على الحياة كلها. لا تذكر تفاصيل السؤال ولا أجوبة الناس؛ لأن كل قارئٍ ينبغي أن يعود من

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

الآية إلى نفسه: ما نعيمي أنا؟ ما العطية التي اعتدتها حتى نسيته؟ ما القدرة التي عطيتها؟ ما المال الذي لم أطهره؟ ما الوقت الذي أهدرته؟ ما الإنسان الذي كان وجوده نعمةً ولم أحسن إليه؟ ما الحق الذي عرفته ولم أقم به؟

إن السؤال يوم القيامة فردي، ولذلك لا تنفع فيه المقارنة. لن يُقال للإنسان: هل كنت أكثر من غيرك؟ بل: ماذا فعلت بما أعطيتك؟ قد يكون غيرك أغنى، لكن ذلك لا يغير سؤالك عن مالك؛ وقد يكون أعلم، لكنه لا يرفع عنك مسؤولية ما علمت؛ وقد يكون أشد تقصيراً، لكن خطأه لا يتحول إلى عذرٍ لك. التكاثر يجعل الإنسان ينظر إلى الآخرين، والحساب يعيده إلى نفسه.

وهكذا تغلق الآية باب التهرب الذي فتحتهُ المقارنات. لا تقل: كان الناس جميعاً يفعلون، فالله يسألك عن فعلك؛ ولا تقل: لم أملك مثل فلان، فالسؤال عما ملكت؛ ولا تقل: كانت قدرتي قليلة، فربك يعلم حدود قدرتك، لكنه يعلم كذلك أين ضيعت القليل الذي كان في يدك.

عندئذٍ تتجمع السورة كلها في مشهدٍ واحد: إنسانٌ ألهته الكثرة، حتى قطعه الموت، ثم جاءه العلم، ثم رأى الحليم، ثم وقف أمام نعمٍ كان يظنها ملكاً صامتاً فإذا بكل نعمةٍ منها تنطق في صورة سؤال.

وهنا يتبين أن المأساة لم تكن في قلة ما أُعطي، بل في أنه لم يعرف قيمة ما أُعطي؛ ولم تكن الخسارة في أنه لم يصل إلى المزيد، بل في أنه لم يشكر الموجود؛ ولم يكن النعيم هو الذي أفسده، بل طريقته في النظر إليه.

سُورَةُ النَّكَارِ

وفي الفصل السابع والأخير قبل الخاتمة سنجمع حركة السورة كلها: من الإلهاء إلى الزبارة، ومن العلم إلى الرؤية، ومن النعمة إلى السؤال؛ لنرى كيف تبني هذه الآيات الثماني فلسفةً قرآنيةً كاملةً للمال والعمر والحضارة والمصير.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

الفصل السابع

هَدَسَةُ الْيَقِيْنِ فِي سُورَةِ التَّكْوِيْنِ

مَنْ الْإِنْسَانُ الَّذِي يُعَدُّ مَا جَمَعَ إِلَى الْإِنْسَانِ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ أُحْصِيَ عَلَيْهِ

ليست سورة التكاثر مجموعة إنذارات متجاورة، بل بناءً قرآنيٍّ محكمٍ تتقدم فيه النفس من حالٍ إلى حال، وتُساق فيه من سطح الأشياء إلى أعماق المصير. تبدأ السورة بإنسانٍ غارقٍ في الحركة، وتنتهي بإنسانٍ متوقفٍ للسؤال؛ تبدأ به وهو ينظر إلى ما في يده، وتنتهي به وكل ما كان في يده موضوعاً أمامه في ميزان الحساب؛ تبدأ بالعدد الذي كان يحصيه، وتنتهي بالحساب الذي لم يكن يحسب له حساباً. وبين المشهدين تهدم الآيات وهمه خطوةً خطوة: تقطعه بالمقابر، وتوقفه بالزجر، وتنقله من المعرفة المؤجلة إلى علم اليقين، ثم من العلم إلى الرؤية، ثم من الرؤية إلى السؤال.

ثماني آياتٍ فقط، لكنها تستوعب سيرة الغفلة كاملةً: باعثها، ومسارها، ونهايتها، وانكشافها، وجزاءها. وفي هذا الإيجاز تظهر قدرة القرآن على ضغط التاريخ الإنساني كله في كلمات؛ فكم من فردٍ وأمةٍ وحضارةٍ بدأ مسارها بطلب الزيادة، ثم تحول طلب الزيادة إلى إلهاء، ثم جاءها الموت وهي مشغولةٌ بما ظنته بقاءً، ثم انكشفت الحقيقة التي أخرجتها. سورة قصيرة، لكن مساحتها الحقيقية تمتد من أول رغبةٍ في التكاثر إلى آخر سؤالٍ في الآخرة.

مِنْ الْإِشْغَالِ إِلَى الْإِنْكَشَافِ

تقوم حركة السورة على انتقالٍ متصاعدٍ من الانشغال إلى الانكشاف. في البداية لا يرى الإنسان شيئاً سوى ساحة المنافسة: ﴿الْمَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾. ثم يظهر القبر في نهاية الطريق: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾. وبعد القبر يأتي العلم: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. ثم تتحول المعرفة إلى رؤية: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾. ثم تنتهي الرؤية إلى المسألة: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾.

كأن السورة تزيل خمسة حجبٍ متتابعة: حجاب الكثرة، وحجاب الأمل الطويل، وحجاب الجهل، وحجاب الغيب، وحجاب الملكية. كان الإنسان يرى الكثرة فتكشف له السورة الموت؛ وكان يؤجل المعرفة فتأتيه بالحقيقة؛ وكان يتعامل مع الجحيم كغيبٍ بعيد فتضعها أمام عينه؛ وكان يتعامل مع النعمة كملكٍ خاص فتجعلها سؤالاً عاماً.

كل مرحلةٍ أشد من سابقتها؛ فالإنسان في أول السورة يستطيع أن يراجع نفسه، لكنه في المقابر لا يستطيع أن يضيف عملاً، وعند رؤية الجحيم لا يستطيع أن يستعيد زمن الإيمان بالغيب، وعند السؤال لا يستطيع أن يعيد النعمة إلى الدنيا ليحسن استعمالها. ومن هنا لا تخبر السورة عن المستقبل لتثير الفضول، بل لتغيّر الحاضر؛ فكل مشهدٍ آتٍ يحمل أمراً مضمراً الآن: انتبه قبل المقابر، واعلم قبل المعاينة، واشكر قبل السؤال.

زَمَنُ السُّورَةِ: عُمُرُ كَامِلٍ فِي كَلِمَاتٍ

تكثر في السورة الكلمات التي تحرك الزمن: ﴿حَتَّى﴾، ﴿سَوْفَ﴾، ﴿ثُمَّ﴾، ﴿لَوْ﴾، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾. ليست السورة وصفاً لحالةٍ ساكنة، بل رحلةً زمنيةً متسارعة. «حتى»

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

تسحب العمر كله نحو القبر، و«سوف» تكشف أن المعرفة المؤجلة آتية، و«ثم» تنقل من انكشاف إلى انكشافٍ أشد، و«لو» تفتح باب الفرصة التي كان يمكن أن تغير المسار، و«يومئذ» تجمع النهايات في يوم الحساب.

الإنسان المتكاثري يعيش أسير اللحظة، لكنه في الوقت نفسه يؤجل الحياة: يستمتع بعاجل اللذة، ويعد نفسه بسعادةٍ مؤجلة حين يحقق المزيد. فجاءت السورة لتصحيح علاقته بالزمن، فال مستقبل الذي ينبغي أن يحضر في وعيه ليس موعد زيادة الرصيد وحده، بل موعد زيارة المقابر، ثم موعد السؤال. واللحظة الحاضرة ليست مجرد جسرٍ إلى مكسبٍ قادم، بل مساحة العمل الوحيدة التي يستطيع فيها أن يغير خاتمته.

إن الزمن في سورة التكاثر ليس وعاءً محايداً، بل رأس مالٍ يتناقص تحت أقدام الإنسان. حين يقول: سأفعل، يكون جزءً من قدرته على الفعل قد مضى؛ وحين يؤجل التوبة، لا يبقى واقعاً في موضعه، بل يقترب من «حتى». كل تأجيل أخلاقي يحمل مخاطرةً لا تظهر في الحسابات الدنيوية: قد يأتي الموعد قبل أن يأتي الوقت الذي اختاره الإنسان لنفسه.

مِنَ الْعَدَدِ إِلَى الْمَعْنَى

التكاثر هو عبادة الكم حين ينفصل عن المعنى. إنه لا يسأل: هل كان ما جمعته حقاً؟ وهل نفع؟ وهل زكّي قلبي؟ بل يسأل: هل كان أكثر؟ ولهذا تعيد السورة بناء الميزان من أساسه؛ فلا يصبح المهم مقدار النعمة، بل الموقف منها، ولا حجم الملكية، بل مقدار الأمانة التي أدت فيها.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

قد تكبر المؤسسات ويصغر الإنسان داخلها، وتضخم الثروات وتقلص الرحمة، وتكثر المدارس ويضعف أثر العلم، وتوسع المناير وتضيق مساحة الصدق، وتكثر الكتب ويقل التحول الذي تصنعه في الأرواح. ليس كل ازدياد غمواً، فقد يزيد الورم في الجسد وهو علامة مرض، وقد تكثر مظاهر القوة في المجتمع بينما تآكل قيمه من الداخل.

والقرآن لا يهمل الكم، فالأمة تحتاج إلى القوة والمال والعلم والعدد والقدرة على الإنتاج، لكن الكم في التصور القرآني يخدم القيمة ولا يستبدلها. لا معنى لثروة تُبنى على سحق الفقراء، ولا لقوة لا تحمي الحق، ولا لعلم لا يثر خشية وإصلاحاً، ولا لانتشار يوزع التفاهة على مساحةٍ أوسع. الكثرة تصبح نعمةً حين تحمل معنى، وتصبح تكاثراً حين تبتلع المعنى.

الحضارة التي تقيس نجاحها بما تنتجه وحده، من غير أن تسأل عن نوع الإنسان الذي تصنعه، قد تملأ الأسواق وتفرغ الأرواح. يستطيع المجتمع أن يرفع مستوى الرفاه، لكنه إذا لم يعرف غاية الرفاه فقد يحول الإنسان إلى مستهلك لا يشبع، تُقاس قيمته بقدرته على الشراء، وتُستثار رغباته باستقرار كي تبقى عجلة التكاثر دائرة. عندئذٍ لا تُنتج الأشياء لتخدم الحاجة وحدها، بل تُصنع حاجاتٌ جديدة كي تضمن استمرار الإنتاج والاستهلاك.

وتأتي سورة التكاثر لتسأل هذا النموذج: ماذا لو كثرت الأشياء وقل الإنسان؟ ماذا لو اتسعت القدرة على العيش وضاعت معرفة لماذا نعيش؟ ماذا لو أصبحت الوسائل أكثر

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

ذكاء، لكن الغايات أشد اضطراباً؟ إن الأزمة ليست في وفرة المنتجات، بل في أن يتحول الإنسان نفسه إلى كائنٍ لا يعرف سوى طلب المزيد.

السُّورَةُ وَتَحْرِيرُ الْإِنْسَانِ

في ظاهر الأمر يبدو المتكاثر حراً، يملك، ويشترى، وينتقل، ويختار. لكن السورة تكشف عبوديته الخفية: إنه لا يستطيع التوقف، ولا يملك إعلان الاكتفاء، ولا يفرح بما عنده ما دام غيره يملك أكثر. يختار بين أشياء كثيرة، لكنه لا يختار الخروج من النظام الذي يقنعه بأنه ناقصٌ دائماً.

الحرية الحقيقية تبدأ حين يستطيع الإنسان أن يقول: يكفيني ما يكفيني، لا لأن الطموح مات فيه، بل لأن قيمته لم تعد معلقةً بالمزيد. يسعى إلى التوسع إذا كان التوسع يخدم رسالته، ويتوقف إذا صار التوسع يلتهم روحه، ولا يسمح للسوق أو المجتمع أو المنافس أن يحدد له حاجاته كلها.

القناعة ليست فقراً في المهمة، بل غنى في الداخل؛ والطموح ليس جشعاً بالضرورة، بل قد يكون عبادةً إذا اتجه إلى عمارة الأرض ونفع الخلق. الفارق بينهما في السؤال: لماذا أريد المزيد؟ إن كان ليزداد الخير الذي يربي، فذلك بابٌ واسع من أبواب الرسالة؛ وإن كان لأصنع من العدد تمثالاً لذاتي، فقد بدأ التكاثر يملك القلب.

ومن تحرر من التكاثر لم يعد نجاح الآخرين إهانةً له، ولا مواهبهم خصماً من قيمته. يستطيع أن يفرح بالخير ولو ظهر على يد غيره، وأن يتعلم ممن هو أصغر منه، وأن يعترف

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

إن من أعظم صور اليقين أن يحتفظ الإنسان بضميره داخل زحام الجماعة، وألا يجعل الكثرة مصدرًا نهائيًا للحقيقة. الناس قد يصفقون للمتكاثر وهو يسير إلى خسارته، وقد يعزلون الصادق لأنه رفض موازينهم؛ لكن التصفيق لا يغير العاقبة، كما أن الوحدة لا تنقص الحق.

حُضُورُ اللَّهِ فِي السُّورَةِ

لا يرد اسم الله صراحةً في ألفاظ السورة، ومع ذلك يمتلئ بناؤها بحضوره وسلطانه؛ فمن الذي يزجر بقوله: ﴿كَلَّا﴾؟ ومن الذي يخبر عن العلم الآتي؟ ومن الذي يؤكد رؤية الجحيم؟ ومن الذي سيسأل عن النعيم؟ إن الله حاضرٌ في السورة بوصفه المتكلم العليم، وصاحب الحكم، ومالك اليوم الآخر، والمنعم الذي ستسأل الخليقة عن عطائه.

وكان غياب الاسم الصريح يجعل الإنسان يرى آثار السلطة الإلهية في كل حركة: في الموت الذي يقطع التكاثر، وفي العلم الذي يكشف الغيب، وفي الجحيم التي تظهر، وفي السؤال الذي يستحضر النعمة. الكون ليس متروكًا، والحياة ليست مآلًا بلا مالك، والنعيم ليس عطاءً مجهول المصدر، والمصير ليس فوضى.

وحين يستحضر الإنسان هذا الحضور يخرج من رؤية الأشياء منفصلةً عن الله. لا يرى الماء مادةً فقط، بل رحمةً من الله؛ ولا يرى العقل قدرةً مستقلة، بل هبةً؛ ولا يرى النجاح ملكًا ذاتيًا، بل توفيقًا واختبارًا؛ ولا يرى الموت خللاً طارئاً في نظام الحياة، بل انتقالاً إلى ما قدره الله. عندها تصبح العبادة طريقةً في رؤية الوجود كله، لا طقوساً منفصلةً عن بقية اليوم.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

الْمَقَابِرِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّعِيمِ

تجمع السورة بين ثلاثة مشاهد كبرى: المقابر، والجحيم، والنعيم. المقابر تكشف فناء الملكية، والجحيم تكشف خطورة العقابة، والنعيم يكشف مسؤولية الحياة. ولا يمكن فهم أحدها منفصلاً عن الآخر؛ فمن تذكر المقابر عرف أن النعمة مؤقتة، ومن آمن بالجحيم أحسن استعمال النعمة، ومن شكر النعمة استعد لما بعد المقابر.

ليس ذكر النعيم بعد الجحيم انتقالاً مفاجئاً إلى موضوع جديد، بل هو كشفٌ عن الصلة بين ما عاشه الإنسان وما يراه. فالعذاب لا يقع بلا عدل، والسؤال يعيد الإنسان إلى أفعاله واختياراته. كانت النعم حوله، وكان يستطيع أن يجعلها طريقاً إلى الجنة، لكنه إذا حوّلها إلى أدوات تكاثرٍ ومعصيةٍ صارت جزءاً من حجتة على نفسه.

وهنا تظهر المفارقة الكبرى: ما ظنه الإنسان دليل نجاته الدنيوية قد يصبح موضوع مساءلته الأخروية. المال الذي منحه شعور الأمن لا يؤمنه يوم الحساب، بل يُسأل عنه؛ والقوة التي حمت موقعه لا تحميه من السؤال عن الضعفاء؛ والشهرة التي ملأت العالم باسمه لا تحو كلمة كتبها أو قالها بغير حق.

فَلَسَفَةُ الْكِفَايَةِ

تحتاج الروح إلى معنى «الكفاية»، لا لتوقف عن النمو، بل لتعرف متى يكون النمو حقيقياً. الكفاية ليست رقماً واحداً يصلح لكل الناس، وإنما حالة لا يسمح فيها الإنسان للرجة بأن تبطل شكره. قد يطلب بيتاً أوسع لحاجة أهله، أو مالاً أكثر ليستغني ويغني،

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

أو حضوراً أكبر ليبلغ كلمة نافعة، وكل ذلك مشروع، لكن عليه أن يراقب اللحظة التي تتحول فيها الوسيلة إلى هوية.

من لا يعرف الكفاية لا يستمتع بما يصل إليه؛ لأن وصوله ليس إلا بدايةً لقلبي جديد. أما من عرفها فإنه يعيش الحاضر شاكرًا، ويسعى إلى المستقبل متوازنًا. لا يقول: لن أتقدم، بل يقول: لن أجعل تقدمي شرطًا لرضاي عن فضل الله ولا معيارًا لكرامتي.

القناعة تمنح الإنسان شيئًا لا تمنحه الثروة وحدها: القدرة على التوقف والنظر والاختيار. المتكاثريُّ ساق، والقانع يقود رغبته؛ المتكاثريُّ يظن أن حريته في امتلاك كل شيء، والقانع يعرف أن حريته في ألا يحتاج قلبه إلى كل شيء.

سَبْعَةُ تَحَوُّلَاتٍ تُرِيدُهَا السُّورَةُ

تريد سورة التكاثر أن تنقل الإنسان من العدد إلى القيمة، فلا يسأل: كم؟ قبل أن يسأل: لماذا وكيف؟ وتنقله من المقارنة إلى الرسالة، فلا تكون حياة الآخرين مرآة يكره فيها نفسه. وتنقله من الغفلة عن الموت إلى العمل في ضوئه، فلا يؤجل ما ينبغي أن يبدأه الآن. وتنقله من المعلومة إلى اليقين، فلا تبقى الآخرة عقيدة ساكنة لا أثر لها. وتنقله من ملكية النعمة إلى أمانتها، فيعرف أن العطاء مسؤولية. وتنقله من الاستهلاك إلى الشكر، فلا يمر على الأشياء مرور من لا يعرف مصدرها. وتنقله أخيرًا من الخوف المتأخر إلى المحاسبة المبكرة، فيسأل نفسه اليوم قبل أن يسأل غدًا.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

هذه التحولات ليست مواضع منفصلة، بل أجزاء إنسانٍ جديد تريد السورة أن تبنيه: إنسانٌ قويٌّ من غير طغيان، طموحٌ من غير جشع، ممتنٌّ من غير نحول، زاهد القلب من غير تعطيلٍ للدنيا، حاضرٌ في الحياة من غير نسيانٍ للآخرة.

السُّورَةُ الَّتِي تَضَعُ الْمِيزَانَ فِي الْقَلْبِ

لا تطلب سورة التكاثر من الإنسان أن يقيم إلى جوار المقابر، بل أن يحمل معناها وهو يسير في الأسواق؛ ولا أن ينظر إلى الجحيم فيقنط، بل أن يتخذ من الإيمان بها حاجزاً يحميه من الظلم؛ ولا أن يخاف النعيم، بل أن يشكره. إنها لا تتزعزع العالم من يده، بل تمنع العالم من انتزاع قلبه.

بعد هذه السورة يستطيع الإنسان أن يفتح حسابه المالي، لكنه ينبغي أن يفتح معه حساب العمر؛ وأن ينظر إلى إنجازاته، لكنه يسأل عن نيته وأثره؛ وأن يفرح بالنعمة، لكنه يتذكر حقها؛ وأن يزور المقابر، فلا يرى أسماء الذين انتهوا فقط، بل يرى الأوهام التي انتهت معهم.

لقد بدأت السورة بكلمة تصف الأسر: ﴿الْمَاهِكُمْ﴾، وانتهت بكلمة تصف المسؤولية: ﴿لَتُسْأَلُنَّ﴾. وبينهما طريق التحرر: أن تعلم قبل أن ترى، وأن تشكر قبل أن تسأل، وأن تموت عن عبودية التكاثر قبل أن يأتي الموت بجسدك إلى المقابر.

وهذا يكتمل النظر في البناء الكلي للسورة، وتبقى الخاتمة الفكرية الجامعة: وقفةٌ أخيرة أمام الإنسان الذي ظل طوال حياته يطلب أن يكون أكثر، ثم اكتشف أن السؤال لم يكن عن مقدار ما جمع، بل عن حقيقة ما صار إليه قلبه وهو يجمع.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

الْحَامَةُ الْفِكْرَةِ الْجَامِعَةُ

حِينَ يَسْقُطُ الرِّقْمُ وَيَبْقَى الْآثَرُ

تُغْلِقُ سورة التكاثر أبوابها بعد ثماني آيات، لكنها لا تخرج من القلب الذي قرأها حقاً؛ لأنها لا تضع أمامه فكرةً يستطيع أن يتركها بين دفتي المصحف، بل تضع أمامه حياته كلها: ما الذي يشغله؟ وما الذي يطلبه؟ وما الذي يظن أنه يملكه؟ وما الذي سيبقى منه حين يزور المقابر؟ إنها سورة قصيرة في ألفاظها، ممتدة في الزمان الإنساني كله؛ تبدأ من اللحظة التي يلتفت فيها الإنسان إلى ما في يد غيره، فتنشأ المقارنة، ثم تولد الرغبة، ثم يستيقظ السباق، ثم تستغرقه الكثرة، ثم يمضي العمر، ثم يأتي القبر، ثم ينكشف الغيب، ثم ترى الجحيم، ثم يُفتح سجل النعيم، ثم يسمع الإنسان السؤال الذي كانت حياته كلها جواباً عنه.

لم تكن مأساة الإنسان في السورة أنه لم يجد ما يكفيه، بل أنه لم يعرف متى يكفيه ما وجد؛ ولم تكن مصيبتة في أن الأشياء كانت قليلة، بل في أن رغبته كانت بلا نهاية؛ ولم يكن ضياعه لأنه توقف عن الحركة، بل لأنه تحرك كثيراً في اتجاهٍ لم يسأل عن نهايته. كان يظن أن امتلاء اليد يعالج فراغ القلب، فكلما ازدادت الأشياء اتسعت حاجته إليها، وكلما ارتفع فوق مرتبة أبصر مرتبةً أخرى، حتى تحولت الحياة من نعمة تُعاش إلى سباقٍ لا يُنجز، ومن فرصةٍ للمعنى إلى جدولٍ للأرقام.

جاءت السورة لترد الإنسان من سحر «الأكثر» إلى حكمة «الأبقى». فليس السؤال: كم جمعت؟ بل: ماذا أبقى من الخير فيما جمعت؟ وليس: كم عرفك الناس؟ بل: بماذا

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

عرفك الله؟ وليس: كم ارتفع اسمك؟ بل: ماذا ارتفع من عملك؟ وليس: كم اتسع بيتك؟ بل: كم اتسعت فيه الرحمة؟ وليس: كم كثرت كلماتك؟ بل: كم كلمة منها أحييت قلباً، أو ردت ظلماً، أو فتحت نافذةً على اليقين؟

لقد كان التكاثر يقنع الإنسان بأن القيمة خارج نفسه: في المال الذي يملكه، والاسم الذي يحمله، والمنصب الذي يجلس عليه، والجمهور الذي يحيط به. فجاءت المقابر لتفصل الإنسان عن كل تعريفٍ خارجي وتتركه أمام حقيقته. هناك لا يدخل الاسم الكبير قبل صاحبه، ولا يمهّد المال للقادم موضعاً أوسع، ولا تقف الجماهير على باب القبر لتمنح محبوبها حصانةً من السؤال. يعود الإنسان فرداً كما بدأ، لا يصحبه إلا عمله، ولا يبقى له من النعمة إلا ما حوله منها إلى شكر، ولا من المال إلا ما قدمه، ولا من العلم إلا ما نفع به، ولا من القوة إلا ما أقام بها عدلاً ودفع بها أذى.

ولم تقل السورة: حتى دخلتم المقابر أو أقمت فيها، بل قالت: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾، لتبقى الكلمة باباً مفتوحاً على البعث. القبور ليست وطن الإنسان الأخير، والموت لا يملك أن يحول المخلوق المكلف إلى خيرٍ انقضى، بل إن وراء الزيارة قيامة، ووراء الصمت نداء، ووراء التراب يوماً تسترد فيه الأجساد وتخرج الأسرار. الذين توارت وجوههم عن أعيننا لم يخرجوا من ملك الله، والذين ظن الناس أن قصصهم انتهت ينتظرون اليوم الذي تُقرأ فيه القصص كاملةً بميزانٍ لا يظلم.

هناك يتجلى الفرق بين العلم الذي ينقذ والعلم الذي يؤلم؛ فقد كان في وسع الإنسان أن يعلم في الدنيا علم اليقين، فيبني على هذا العلم موقفه، ويكسر به شهوة التكاثر، ويضع

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

النعمة في موضعها، لكنه إن أعرض فسيعلم بعد الموت علماً لا يملك معه فرصة العمل. ليست الحسرة أنه لم يعرف الحقيقة أبداً، بل أنه عرفها حين لم يعد يستطيع أن يغير شيئاً. وما أقسى المعرفة حين تأتي بعد انقضاء القدرة؛ وما أثقل أن يرى الإنسان الطريق الصحيح في اللحظة التي لا يستطيع فيها أن يعود خطوة واحدة.

ولهذا تكرر السورة: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ثم ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. كأنها تطرق باب القلب مرة، ثم تعود فتنطقه؛ لأن الغفلة لا تخرج بسهولة، ولأن ضجيج الحياة يستطيع أن يبتلع أثر الموعظة بعد قليل. كم وقف الإنسان أمام قبرٍ فشعر أن الدنيا صغيرة، ثم خرج فعادت تكبر في عينه؛ وكم فقد عزيزاً فأدرك قصر العمر، ثم استردته التفاصيل حتى عاش كأن فقد لم يعلبه شيئاً. الموعظة الصادقة ليست دمعاً تسقط في المقبرة، بل ميزانٌ يعود به الإنسان إلى السوق والبيت والمكتب، فيغير طريقته في الكسب والخصومة والمحبة والوقت.

ثم يبلغ السياق ذروة انكشافه: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ثم ﴿لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْبَقِيْنِ﴾. ما كان خبراً يصبح مشهداً، وما كان غيباً يصير حاضراً أمام العين. عندئذٍ لا يحتاج أحدٌ إلى برهان، لكن البرهان لا ينفع بعد انتهاء زمن التكليف. كانت فضيلة الإيمان أن يرى الإنسان بنور الوحي قبل أن يرى بعينه، وأن يزن خطوته بعاقبتها، وألا يبيع ما لا يفنى بما يفنى. أما حين تظهر الجحيم فلا يبقى للإنكار موضع، ولا للتأجيل معنى، ولا للأعذار قدرتها القديمة على تخدير الضمير.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

غير أن السورة لا تنتهي بالبحيم، بل تنتهي بالنعيم؛ وهذه المفارقة من أعمق أسرار بنائها. كأن الطريق إلى المصير لا يفهم إلا بالعودة إلى العطايا التي مر بها الإنسان: ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾. ليست الحياة ساحة حرمانٍ وحده حتى يظن المرء أن السؤال متعلق بالمصائب، بل هي كذلك ساحة عطايا: جسدٌ يحمل، وعقلٌ يميز، وماءٌ يروي، وطعامٌ يسد الجوع، وبيتٌ يستتر، وقلبٌ يحب، ووقتٌ يتيح، ووحىٌ يهدي. وما أكثر النعيم الذي لا نراه لأنه لم ينقطع، ولا نحمده لأنه جاءنا كل يوم.

لقد كنا نظن أن النعمة هي الشيء الذي نطلبه ولا نملكه، بينما تلفنا نعمٌ لم نطلبها لأننا ولدنا داخلها. لم نقدم طلباً إلى الله كي يمنحنا السمع والبصر والعقل، ولم نوقع عقداً لاستمرار القلب في النبض، ولم ندفع ثمن الهواء الذي يملأ الرئتين، ومع ذلك نتعامل مع هذه العطايا كأنها جزءٌ واجب من تكوين العالم، لا فضلاً يتجدد في كل لحظة. فإذا تعطلت نعمةٌ واحدة عرفنا متأخرين مقدار الملك الذي كنا نعيش فيه.

والسؤال عن النعيم لا يحرم الفرح، بل ينقذه من الابتذال؛ فالمؤمن لا يعتذر عن جمال أحله الله، ولا يعادي الحياة، ولا يرى في الراحة خطيئة، وإنما يتلقى الطيب شكراً، ويستعمله اعتدالاً، ويعرف له حداً وحقاً. الخطر ليس أن تدخل النعمة البيت، بل أن تحتل القلب؛ وليس أن يملك الإنسان مالاً، بل أن يملكه المال؛ وليس أن يُعرف بين الناس، بل أن تصبح معرفتهم به أعظم عنده من معرفة الله لسره.

تُعِيد السورة تعريف الغنى: ليس الغنى من كثرت أشيائه وحدها، بل من لم يعد فقيراً إلى ما في أيدي الناس؛ وتعيد تعريف النجاح: ليس أن تحصل إلى موضع يراك فيه

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

الجميع، بل أن تصل إلى الله بقلب سليم؛ وتعيد تعريف العمر: ليس عدد السنوات التي مرت، بل مقدار الحق والخير والمعرفة التي أودعها الإنسان فيها؛ وتعيد تعريف النعمة: ليست ملكية خاصة، بل أمانة مؤقتة؛ وتعيد تعريف الموت: ليس انطفاء للحقيقة، بل انكشافاً لها.

ولو خرج الإنسان من سورة التكاثر بفكرة واحدة، فلتكن هذه: إن ما يكثر في اليد لا يزيد قيمة صاحبه إلا بمقدار ما يصنعه به من حق. ليست الأموال درجات عند الله بذاتها، ولا الألقاب، ولا كثرة الكتب والأتباع والأنصار، وإنما النية الصادقة والعمل النافع والشكر والعدل. قد تكون الكثرة قوة هائلة للخير، وقد تكون حجاباً كثيفاً يحجب صاحبها عن الله؛ وقد يكون القليل مباركاً لأنه دخل قلباً شاكراً، وقد يكون الكثير شقاءً لأنه دخل قلباً لا يعرف إلا المقارنة.

إن العالم لا يحتاج إلى إنسان أقل عملاً بالضرورة، بل إلى إنسان أكثر وعياً بما يعمل؛ لا يحتاج إلى إلغاء الطموح، بل إلى تحريره من عبادة الذات؛ لا يحتاج إلى ترك العمران، بل إلى عمران لا يهدم الروح؛ لا يحتاج إلى احتقار المال، بل إلى مال يعرف صاحبه أنه مستخلف فيه؛ لا يحتاج إلى إطفاء الرغبة في النجاح، بل إلى نجاح لا يُبنى على ظلم ولا يتحول إلى صنم.

فليجمع الإنسان، ولكن ليعرف لماذا يجمع؛ وليكبر مشروعه، ولكن لثلا تصغر روحه؛ وليكثر علمه، ولكن لثلا يكثر به على الناس؛ وليتسع أثره، ولكن ليكن همه أن يُقبل لا أن يُذكر؛ وليستمتع بالنعمة، ولكن ليحفظ فيها حق المنعم وحق الخلق. إن الدنيا

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

لَا تُدْمُ لِأَنهَا دُنْيَا، وَإِنَّمَا تُدْمُ حِينَ تَحْجُبُ عَمَّا بَعْدَهَا، وَالنُّعْمَةُ لَا تُدْمُ لِأَنهَا لَذِيذَةٌ، وَإِنَّمَا حِينَ تَتَحَوَّلُ لَذَنَهَا إِلَى غَفْلَةٍ، وَالكَثْرَةُ لَا تُدْمُ لِأَنهَا قُوَّةٌ، وَإِنَّمَا حِينَ تَتَقَلَّبُ إِلَى تَكَثُّرٍ.

فِي الْهِيَاةِ لَنْ يُسْأَلَ الْقَبْرِ كَمْ كَانَ فِي الْبَيْتِ مِنْ مَتَاعٍ، وَلَنْ يُسْأَلَ الْمِيزَانَ كَمْ كَانَ حَوْلَ الْأَسْمِ مِنْ ضَجِيجٍ. سَيَبْقَى الْأَثَرُ حِينَ يَسْقُطُ الرَّقْمُ، وَتَبْقَى النِّيَّةُ حِينَ تَنْطَفِئُ الصُّورَةُ، وَيَبْقَى مَا خَرَجَ مِنَ الْيَدِ لِلَّهِ حِينَ يُخْرِجُ مِنَ الْيَدِ كُلِّ شَيْءٍ. وَمَا أَنْفَقَهُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ فِي الْحَقِّ سَيَجِدُهُ، وَمَا اسْتَهْلَكَهُ فِي إِثْبَاتِ ذَاتِهِ لِلنَّاسِ سَيَتَضَاعَلُ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا الْحَسْرَةُ.

إِنَّ سُورَةَ التَّكْوِيْنِ لَا تَقُولُ لَنَا: لَا تَمْلِكُوا، بَلْ تَقُولُ: لَا تَمْلِكُوا؛ وَلَا تَقُولُ: لَا تَكْثُرُوا مِنْ الْخَيْرِ، بَلْ تَقُولُ: لَا تَجْعَلُوا الْكَثْرَةَ غَايَةً مُسْتَقَلَّةً عَنِ الْحَقِّ؛ وَلَا تَقُولُ: اتْرَكُوا الدُّنْيَا، بَلْ تَقُولُ: ضَعُوهَا فِي مَوْضِعِهَا، طَرِيقًا إِلَى اللَّهِ لَا جِدَارًا دُونَهُ. إِنَّهَا تَرِيدُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ أَكْبَرَ مِنْ أَشْيَائِهِ، وَأَنْ تَكُونَ رُوحُهُ أَوْسَعَ مِنْ خَزَائِنِهِ، وَأَنْ يَعْرِفَ أَنَّ الْحَيَاةَ الَّتِي لَا تَنْتَهِي إِلَى اللَّهِ، مَهْمَا كَثُرَتْ تَفَاصِيلُهَا، تَظَلُّ إِلَهَاءً طَوِيلًا يَنْتَهِي عِنْدَ قَبْرِ.

اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ مَا وَهَبْتَنَا حِجَابًا عَنْكَ، وَلَا تَجْعَلْ كَثْرَةَ عَطَائِكَ سَبَبًا لْغَفْلَتِنَا، وَأَعِنَّا عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحَسَنِ عِبَادَتِكَ، وَبَارِكْ لَنَا فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَاجْعَلْ نِعْمَتَكَ فِي أَيْدِينَا قُوَّةً لِلْحَقِّ، وَفِي قُلُوبِنَا طَرِيقًا إِلَى الْحَمْدِ، وَفِي أَعْمَالِنَا نُورًا نَجِدُهُ يَوْمَ نَلْقَاكَ. اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا عِلْمَ الْيَقِينِ قَبْلَ أَنْ نَرَى عَيْنَ الْيَقِينِ، وَأَيِّقْظُنَا قَبْلَ أَنْ تَنْتَهِيَ فُرْصَةُ الْاسْتِيقَاضِ، وَاجْعَلْ خَيْرَ أَعْمَارِنَا خَوَاتِيمِهَا، وَخَيْرَ أَعْمَالِنَا أَخْلَصَهَا، وَخَيْرَ أَيَّامِنَا يَوْمَ نَلْقَاكَ وَأَنْتَ رَاضٍ عَنَّا.

تَمَّ بِحَمْدِ اللَّهِ